رحلات الصحافي العجوز

شهران في لبنان وبلاد اليونان وإيطاليا وطرابلس الغرب صيف سنة ١٩٣٨

توفيق حبيب

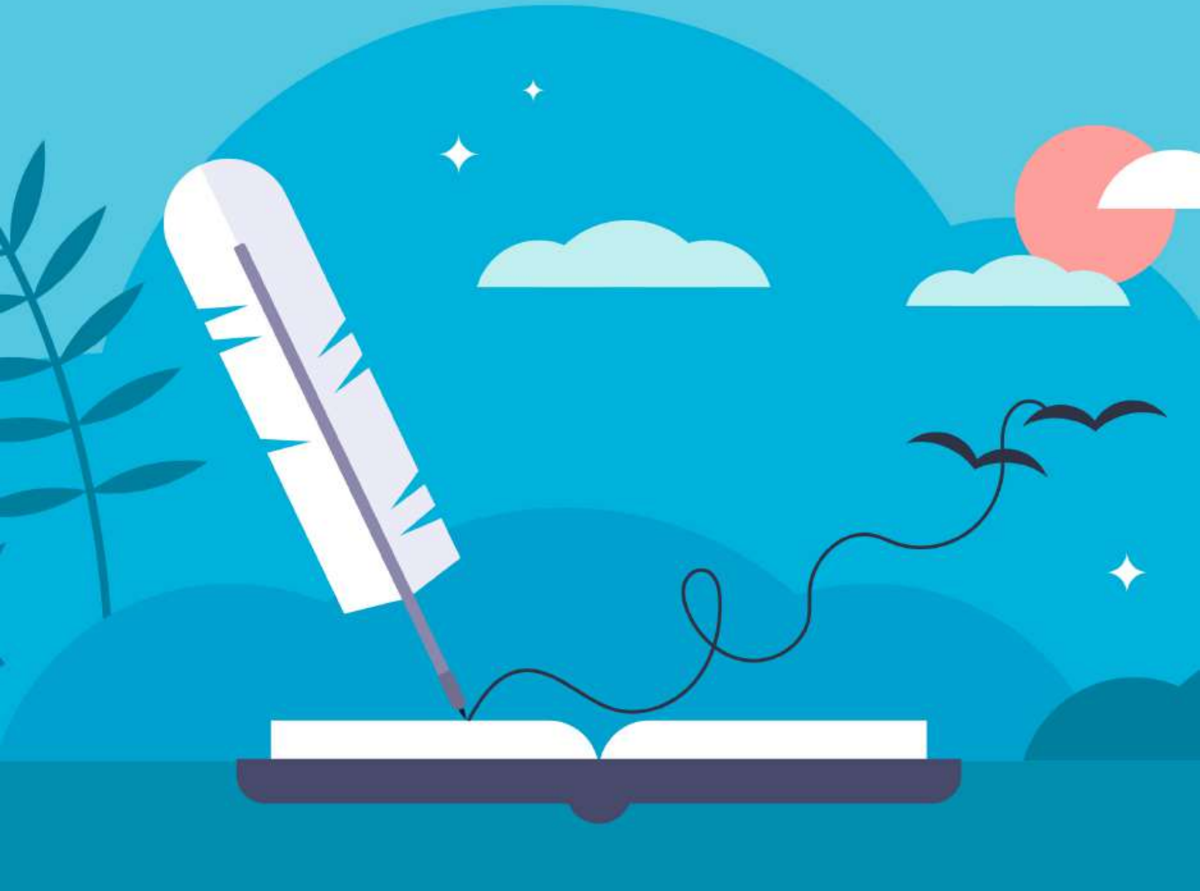

رحلات الصحافي العجوز

شهران في لبنان وبلاد اليونان وإيطاليا وطرابلس الغرب
صيف سنة ١٩٣٨

تأليف
توفيق حبيب

هنداوي

رحلات الصحافي العجوز

توفيق حبيب

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

٣ هاي ستريت، وندسور، SL4 1LD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري.

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢١٦٠ ١

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٨
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠

جميع الحقوق الخاصة بتصميم هذا الكتاب وصورة الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف-غير تجاري-منع الاشتقاق، الإصدار ٤٫٠. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Copyright © 2020 Hindawi Foundation.
All rights related to design and cover artwork of this work are licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License. All other rights related to this work are in the public domain.
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

المحتويات

الصحافي العجوز كما عرفته	٧
١- رحلة صيف	١٣
٢- مع الحاجة شنطة	١٩
٣- أيام في بيروت (١)	٢٥
٤- أيام في بيروت (٢)	٣١
٥- أيام في بيروت (٣)	٣٧
٦- أيام في بيروت (٤)	٤٣
٧- في الباخرة تراكي	٤٩
٨- قبرص قديمًا وحديثًا	٥٥
٩- أيام في أثينا (١)	٦١
١٠- أيام في أثينا (٢)	٦٧
١١- أيام في أثينا (٣)	٧٣
١٢- أيام في أثينا (٤)	٨١
١٣- أيام في أثينا (٥)	٨٧
١٤- من بيريه إلى برنديزي	٩٣
١٥- في باري ونابولي	٩٧
١٦- الأيام الأولى في روما	١٠٥
١٧- جولة في الفاتيكان	١١١
١٨- في المعرض الأوغسطي	١١٧
١٩- في الأكاديمي المصرية	١٢١

٢٠- الدوبولافورو وأشياء أخرى ١٢٧
٢١- في فلورنسا وفنيسيا ١٣٣
٢٢- في المعرض البينالي ١٣٩
٢٣- من فينسيا إلى أباتسيا ١٤٧
٢٤- بين أباتسيا وروما ١٥٣
٢٥- من روما إلى تونس ١٦١
٢٦- طرابلس قديمًا وحديثًا ١٦٧
٢٧- أسبوع في طرابلس ١٧٣
٢٨- طرابلس الجديدة ١٨١
٢٩- بين الصحافيين والأدباء ١٨٧
٣٠- في التربية والتعليم ١٩٣
٣١- العزبة المتمدنة وبيوت العمال ١٩٩
٣٢- يومان في بنغازي ٢٠٥
٣٣- من بنغازي إلى ألماظة ٢١٣

الصحافي العجوز كما عرفته

منذ خمسة عشر عامًا، أو تزيد، عرفت الصحفي العجوز وهو لم يكن يومئذٍ عجوزًا!

كنتُ أعمل في قسم المطالَعة بدار الكتب المصرية لإرشاد المطالِعين إلى مَراجِع بحوثهم، وكان هذا العمل يقتضي أن أقطع مع المؤلِّفين الباحثين مراحلَ شاقة من البحث والتنقيب، كما يقتضي أن أبلوَ من أخلاقهم ومَقْدرتهم ما لا يتيسر لغيري من الناس.

ولقد رأيت في هذا العمل وجوهًا شتى، وأَمْزجة مختلفة، وشهدت من جمهرة الناس صورًا عديدة تختلف باختلاف أصحابها، وكنت في ذلك كمَن يجلس في إحدى دور الصور المتحركة ليشهد أكثر عدد من الروايات والأقاصيص، ويطالِع في وجوه أبطالها شتى المعاني، ويحسُّ حيالها مختلِف الأحاسيس.

ثم تعاقَبت الأيام وتلاحَقت الأعوام فمَحَتْ من ذاكرتي أكثرَ ما شاهدتُ من هذه الوجوه.

وكان الصحفي العجوز أحد أولئك الذين عرفتهم من قرَّاء دار الكتب. ولم يكن من أولئك الذين رأيتُ من أمثالهم مئاتٍ وألوفًا ثم انطمستْ مَعالِمُ معرفتي بهم؛ ذلك لأن الصحفي العجوز «شخصية» جديرة بأن تحتلَّ المكان الأول في نفس مَن يعرفها.

ولقد تمت معرفتي له على الأيام، ولم تَزِدني هذه الأعوام الطوال إلا إكبارًا له وإعجابًا بماضيه وحاضره.

اسمُ الصحفي العجوز «توفيق حبيب»، واسمُ صاحب هذا القلم «عبد الله حبيب»، ولقد ظنَّ كثيرٌ من الناس، لاتفاقنا في اللقب، أننا شقيقان أو من أبناء عمومة! وسيدهش القرَّاء حين أقول لهم إن الصحفيَّ العجوز مسيحي، وإن كاتبَ هذه المقدمة من علماء الأزهر الشريف!

سيدهش القرَّاء لهذه «المفارَقة» البالغة! أمَّا صاحبنا الصحفي العجوز فقد أراد — يومَ طلَبَ إليَّ كتابةَ هذه المقدمة — أن أَفِيَ له بدَيْنٍ قديم في عُنق الأزهر والأزهريين، فقد شاء ولَعُه بالمفارَقات يومًا أن يكتبَ عن تاريخ «الجراية» في الأزهر قديمًا وحديثًا، فكتب في ذلك فصلًا طريفًا لا يُوفَّق إلى مِثْله إلا أزهريٌّ عاش في صحن الأزهر وأكل من خبزه، وأراد يومًا أن يكتب تاريخَ المرحوم الشيخ محمد بخيت مفتي الديار المصرية، فكتب عن حياته ومؤلَّفاته ما لا يستطيع أن يُلِمَّ بأطرافه إلا أحد أبناء الأزهر ممَّن خالَطوا الفقيدَ ووقفوا على مختلِف جوانبه الأزهرية.

وهكذا تجد الصحفي العجوز يَجُول في كل ميدان، ويجرِّد قلمَه في كل معركة وهو واثقٌ من الظفر والانتصار. وسِيَّان عنده أن يكتبَ عن تاريخ الكنيسة القبطية أو دخائل الأزهر؛ لأنه يعلم أنه في الحالَيْن مؤرِّخٌ لَبِق مُوفَّق.

أما أسلوب الصحفي العجوز فلا بد فيه من كلمةٍ توضِّح سرَّ نجاحه بين الكتَّاب المعاصرين.

يُخيَّل إليَّ أن سِرَّ نجاحه أنه يحدِّث الناس بما يَأْلفون، فلا يُجهِد قرائحَ قرَّائه بمسائل الفكر العويصة التي تحتاج إلى التعمُّق؛ وأنه ينقل عن الحياة الفطرية الخالصة التي لا يحجبها سَحاب؛ وأنه لا يحاول أن يكون بليغًا بالمعنى الذي تواضَعَ عليه عشَّاق الصناعة اللفظية والمحسِّنات الكلامية. ولذلك يَصِل أسلوبه الواضح المُحكَم إلى قلوب قرَّائه في غير كُلْفة أو تعمُّل.

ولقد يظن بعض الناس أنه يُدخِل في أسلوبه كثيرًا من الكليات العامِّيَّة الدارِجة عن عجزٍ أو قصور.

ولستُ أرى ما يرى هؤلاء الناس؛ لأن ما يقابل هذه الكلماتِ العامية من اللغة الفصحى لا يخفى على كاتبٍ مارَسَ الكتابةَ نيِّفًا وثلاثين عامًا مثل الصحفي العجوز؛ فهو إذن يضع هذه الكلمات عامِدًا لتكون عبارتُه أقربَ إلى الفَهْم وأدنى إلى التوضيح.

وإلا فهل كان لا يعرف أن كلمة «بالطو» يُقابِلها باللغة الفصحى كلمة «مِعْطَف»، أو أن كلمة «جلارية» يُقابِلها باللغة الفصحى كلمة «الممر التجاري» أو «سويقة».

وهاتان الكلمتان اللتان أسوقهما مثالٌ لكثيرٍ مما ورد في هذا الكتاب؛ إذ أوردهما المؤلِّف في الفصل الممتع الطريف الذي كتبه بعنوان أسبوع في طرابلس. وذلك في قوله عن القسم القديم: «ويمكنك أن تستعرض فيه الوطنيِّين بملابسهم المختلفة المتعددة الألوان من برانس وسراويل وجلابيب بيضاء وبالطوات وحرائر ملونة.»

فلا أحسب أنه عجز عن أن يكتب كلمة «مَعاطِف» مكان قوله «بالطوات».

وفي حديثه في هذا الفصل عن سوق المشير يقول: «وفي هذا القسم سوق المشير، وهي جلارية خاصة بالصناعات الوطنية المحلية من حديد ونحاس ونسيج وغيرها.» وقد كان يستطيع — من غير شك — أن يضع كلمة «ممر تجاري» مكان كلمة «جلارية»، لكنه كما أَسْلَفتُ يتعمَّد الإبانةَ عن غرضه بما يجري على ألسنة الناس من ألفاظٍ متداولة.

وهو في هذه الخطة التي يلتزمها يُغضِب أهلَ اللغة العربية الفصحى ورجالَ المَجْمَع اللغوي الأَجِلَّاء، لكنه يظفر برضاء أكثر قرَّائه. وذلك هو ما يَبْغي.

والصحفي العجوز يبلغ الستين من عمره في فبراير القادم، قضى منها عشرَ سنوات بين كتَّاب العريف والمدارس الابتدائية، وأربع سنوات متردِّدًا على دار الكتب المصرية، حين كانت في درب الجماميز، يوميًّا بلا انقطاع مراجِعًا الجرائد والمجلات ومستندات تاريخ مصر الحديث.

وفي أغسطس سنة ١٩٤٠ يُتِم أربعين سنة في تحرير الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية. من العمل سنتان مع المرحوم جندي بك إبراهيم في جريدة «الوطن» اليومية. ومعاونًا الشيخ يوسف الخازن في جريدة «الأخبار»؛ حيث اشتهر بمقالاته القصيرة بتوقيع «محدث»، وعناوين التلغرافات والمحليات و«القص» من الجرائد.

وغامَر وقامَر، وأخذ مقاولات شحن ونقل، وذهب إلى مونتكارلو غير مرة، ولكنه لم يُوفَّق إلى الثروة عن طريق المجازَفة أو اللعب أو صناعة القلم.

وبدأ زياراته أوروبا وسياحاته فيها سنة ١٩٢١، فقضى ثمانية أشهر متجوِّلًا بين سويسرا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا.

وزار إستامبول وسوريا ولبنان ويوجوسلافيا وإسبانيا عشرَ مرات.

هذه الأعوام الطوال التي قضاها صحفيُّنا العجوز في جهاده الصحفي الشاق وجولاته ورحلاته في أوروبا، لم تَزِده إلا قوةً ونشاطًا، رغم ما نال جسمه من الهزال، وما انتابه من الأسقام والعِلَل.

ولستُ فيما أسلفتُ إلا مُوجِزًا لما اضطلع به من الأعمال الصحفية والمطالَعات المستمرة، ليرى قرَّاؤه مقدارَ ما عانى في هذه الصناعة المُضنِية من الجهد والتضحية.

ولعل من الإنصاف لتاريخ الصحفي العجوز أن نذكر له بالخير ذلك الجهد المشكور الذي بذله في سبيل صاحبة الجلالة الصحافة، وتلك المعارض العديدة التي دوَّن وصْفَها بأسلوبه الممتع الموجز. ولقد ننسى كثيرًا ممَّا تخطُّه أقلامُ الكتَّاب في كثير من المناسبات العارضة، ولكننا لن ننسى ما حيينا هذه الرسائلَ الطريفة التي دبَّجَتْها يَرَاعةُ صحفيِّنا العجوز في وصف معرض الصحافة الدولي في كولونيا، ومعرض بروكسل العام، ومعرض الفنون والصناعات بباريس، ومعرض المستعمرات الأهلي في مارسيليا.

وعلى ذِكْر هذه المعارض التي ارتحل إليها صاحبُنا وأمتع قرَّاءَه بوصفها الرائع، يجب أن نذكر له بالفَخَار أنه هو الذي أنشأ أولَ معرض للصور في مصر، وساهَمَ في حركة الكشَّافة، وشارَكَ الأستاذَ فؤاد عبد الملك في إقامة معرضٍ أهلي للأطفال.

أما ولَعُ الصحفي العجوز بالكُتُب فقد بلغ حدًّا يقرب من الجنون، وهو في هواية جمع الكتب وترتيب فهارسها أصبح مضربَ الأمثال. وحسْبُك أن تعلم أنه اقتنى مكتبةً تُعتبر كلُّ كتبها مستنداتٍ صحفيةً نافعة، ويبلغ عددها أربعةَ آلاف كتاب.

وأما عمله الآن فهو كتابة الهامش اليومي بجريدة الأهرام ومصر منذ خمسين سنة، وتحرير ثلاث مقالات في الأسبوع لجريدةٍ يومية، ومقالتين لجريدتَيْن أسبوعيتَيْن، غير ما يُطلَب منه تحريره في بعض أمورٍ فنية لبعض الصحف والمجلات، فيُلبِّيها سِرَاعًا معتمدًا على ذاكرته وما لديه من وثائق ومَراجِع.

وقد سلِمَ طولَ حياته من الاندماج في حزبٍ من أحزاب مصر السياسية، فظل صديقًا للجميع، محبوبًا من الجميع، لا يبغي غيرَ الإصلاح والإرشاد.

أما حياتُه الخاصة فلستُ أريد أن أكشف عنها السِّتْر، وحسْبُك أن تعرف أنه من عشَّاق حي الأزبكية، ومن روَّاده منذ عام ١٨٩٨م إلى اليوم، وإنه لم يتخلَّف عن سهراته وأمسياته حتى في سِنِي الحرب العظمى أيامَ كانت الجنود الإنجليزية والأسترالية تُلقِي الرعبَ في قلوب روَّاد هذا الحي من المصريين.

ذلكم هو الصحفي العجوز الذي تنعمون اليومَ بقراءة كُتُبه التي يسجِّل بها رحلاته ومشاهداته بأسلوبٍ سهل ممتع يَعزُّ على كثير من الكتَّاب.

وذلكم هو كِتَابه الأخير، لا أجد ما أقول فيه سوى أنه أثَرٌ من آثار الصحفي العجوز التي تَحْوي تجاريبَ أعوامه الطوال وفنه الصحفي الرائع، ولستُ أبغي في هذه المقدمة

أن أعرض لتفاصيل الكِتَاب فأَحُول بين القارئ وبين لذَّة الاستمتاع بما يَحْوي من دقيق الوصف وبراعة التدوين.

وبعد، فالكتابُ جملةً وتفصيلًا في يد القرَّاء، فهو في ذاته أبلغُ دليلٍ على ما لصاحبه من مكانة مرموقة ومنزلة رفيعة، والسلام.

عبد الله حبيب
دار الكتب المصرية

الفصل الأول

رحلة صيف

«الصحافي العجوز» يستأذن قرَّاء الهامش لإجازة خارجية عِدَّتُها سبعةُ أسابيع بالكمال والتمام.

في السنة الماضية عندما عُدْتُ من الإجازة قال لي أستاذنا السناتور رئيس التحرير: السنة الجاية إجازة بقيد وشرط.

قلت: وأنت تعلم يا سيدي الرئيس أنني أكره القيود والشروط، ولكن أمرك مُطاعٌ على كل حال.

قال: الشرط أن «تنقطنا بسكاتك» بألَّا تكتب، بل تكتفي بالاستراحة، وتمتنع عن تكرار اللف والبرم وشرح زياراتك للمتاحف والمكتبات.

فوعدته. فهز رأسه، وقال مبتسمًا: أنا عارف اللي فيه شيء ما يخليهشي.

تفصيل أخبار الرحلة

وسأحاول في هذه الرحلة أن أقلِّل من الكتابة إذا طاوعني الاستيليو المحترم ولم يصادفني ما يستحق الكتابة. وإلا فالرسائل متواليةٌ متلاحقة حتى تنتهي الرحلة، وقد يكون لها ذيل يُستخدَم باليومية في مصلحة الكنس والرش.

بروجرام الرحلة

ورحلة هذه السنة لا تتجاوز حوض البحر الأبيض المتوسط، مهد الحضارات المصرية والفينيقية والعبرية واليونانية والرومانية.

فمن مصر إلى بيروت ولبنان، عن طريق البحر.

والبواخر المصرية والفرعونية والفرنسوية والإيطالية مزدحمة مختنقة مكبوسة منذ شهر.

وبعد كل عناءٍ وجدتُ محلًّا مختارًا في الباخرة الرومانية «داسيا» التي تسير متبخترة من الإسكندرية إلى بورسعيد، فحيفا ويافا وبيروت.

وفي بيروت ولبنان الأهلُ والأصدقاء والخِلَّان، والأكل والشرب بالإكراه، والجلسات الطيبة مع أهل السماح الملاح، والخوتة المنتظرة في أحاديث الأدب والسياسة.

خريطة سياحة الصحافي العجوز

من الإسكندرية إلى بيروت، فبيريه، برنديزي، باري، نابولي، روما، فلورنسا، فنيسيا، تريسيا، فيومي، أباتسايا، روما، تونس، طرابلس، بنغازي، مصر.

ثم يكون السفر إلى اليونان على باخرة يونانية طوَّافة تمر بطرابلس الشام وموانئ قبرص الثلاثة فبيريه.

وبلاد زفس وديانا وأبوللو وسقراط وأفلاطون وسولون تحتاج إلى عمرٍ طويل، وتخصُّصٍ لدراسة آثارها وآدابها؛ ليعرف المرء كيف يزورها ويتذوَّق معانيها وأحجارها وأطلالها.

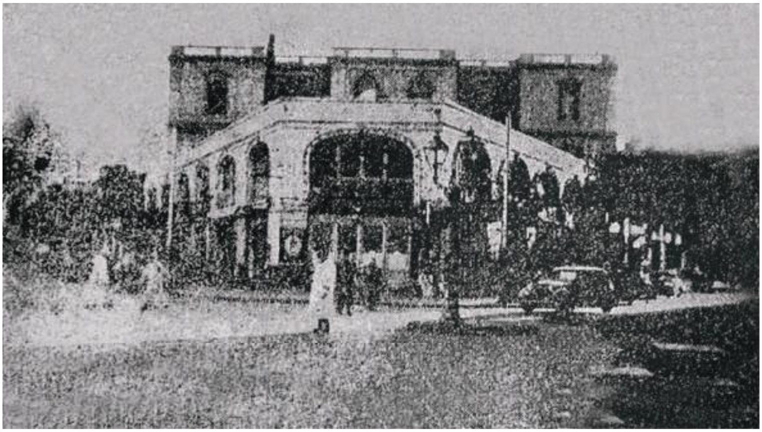

على باب بار اللواء.

فأنا أمر بها لمامًا، وأقضي أسبوعي فيها في التمتع بالجلسات الطيبة مع الأستاذ حاجي مانولي، والأستاذ كوستا أورانيس، وزيارة المفوضية والقنصلية المصريتين، والتنقُّل في الجزر لمشاهدة محاسن الطبيعة التي لم تفسدها الصناعة والحضارة.

ومن بلاد اليونان إلى بلاد الطليان: بلاد دانتي أليجيري والدوتشي موسوليني والفنون والاسباجيتي.

ولي فيها مآرب أهمُّها زيارةُ المعرض الأوغسطي في روما، والطوافُ بديار قداسة سيدنا كبير النصارى بابا روما المعظَّم، وما فيها من كنوز الكتب والتحف والآثار والصور.

ومن روما إلى فلورنسا فبلد الجوندولات فنيسيا حيث يرقد بسلام كاروز مصر ماري مرقس. وفيها الآن معرض الصور الدولي البينالي (أي المعرض الذي يقام كل سنتين).

وفي هذا المعرض العظيم تمثل مصر لأول مرة بطائفة صالحة من صور الفنانين المصريين وتماثيلهم.

الأستاذ مصطفى كامل الشناوي من أسرة الأهرام وزبائن بار اللواء.

ويمثِّلنا في المعرض الأستاذُ سحاب رفعت ألماس ومعه الأستاذ عبد القادر رزق، ولا بد أن يكون هناك راغب عيَّاد والسيدة زوجته، ولبيب تادرس، وغيرهم من الأصدقاء الفنانين المصريين الذين يعرفون زوايا المدينة ودخائلها والنزهات الليلية في الروافد المظلمة.

أما العودة فعن طريق مارسيليا بعد المرور الخفيف بمونت كارلو وزيارة الصديق العزيز الأستاذ صبري السوربوني في نيس.

هذا هو البروجرام المرسوم، وقد يدخل إليه شيء من تبديل وتعديل تبعًا للملابسات والظروف، وليس لي أن أتكهَّن بما تُكِنُّه الأيام والليالي من طيب وردي.

وداع الإخوان والأصدقاء

وبعد وداع الإخوان في دار الأهرام ومكتب السياحة، كان لا بد من المرور ببار اللواء لوداع الزبائن المحترمين.

وكان في مقدمتهم الزميل العزيز الأستاذ الشيخ (باعتبار ما كان) علي الغاياتي الجنيفي صاحب منبر الشرق.

والشيخ يعادي اليومَ الاصطيافَ في أوروبا، ويحمل حملاتٍ نكراءَ على مَن يذهبون إلى فيشي وفيتل وكارلسباد وماريناباد.

استأذنته في السفر وأن يكون راضيًا عني.

فردَّ مبتسمًا: «إن كان علشانك فقط ماعليهش.»

ولست أريد أن أجادل نظرية القائلين بمنع السفر إلى الخارج، ويكفي للرد عليها أن القاصدين إلى أوروبا في هذه السنة لا يقِلُّون عن أربعين ألفًا.

يومان في الإسكندرية

وكان القطار الذي برح الإسكندرية يوم ١٥ يوليو ١٩٣٨ مشحونًا شحنة كاملة.

وبكل نفس وجدت مقعدًا على هامش الكابينات.

ولم ينقذ الموقف غير قاعة الطعام وتناول القهوة مع الشيخ المحترم جرجس تكلا بك، وسماع أحاديثه عن الفلاحين وبؤس أرباب الأملاك وتخوُّفهم من المستقبل.

وليس الحال في الإسكندرية على ما كان يُنتظر.

فالغرفُ المفروشة والشققُ المفروشة تنادي المصطافين، ولا حياةَ لمن تنادي.

وقاعات الرقص والتمثيل الهزلي يعاني أكثرُها الكساد.

والوقت ضيِّقٌ لا مجالَ فيه لزيارات الأصدقاء المِقيمين والأصدقاء المصطافين.

في بيت الدكتور يزبك

ولكن كانت هناك زيارة ضرورية للأستاذ الدكتور يزبك الطبيب البيطري المعروف وعائلته الكريمة.

وفي داره ببولكي وجدتُ زميلَه الدكتور الجارحي بك.

وجرى ذِكر اللحم، ومَن أعرف باللحم من الطبيب البيطري؟!

قال الدكتور يزبك: سيتعهَّد الزميل الجارحي بك بتوريد المرتب لنا يوميًّا من كفر الدوار؛ لأن اللحم في الإسكندرية لا يُؤكَل.

فقد قصدتُ قصَّابًا، وطلبتُ منه قطعةً من البتللو، فقدَّمَ إليَّ لحمَ جمل، ولما رفضته قدَّم لي شريحةً من البتللو مليئةً بجراثيم لزرع الدودة الوحيدة، فذكرت له أنني طبيب

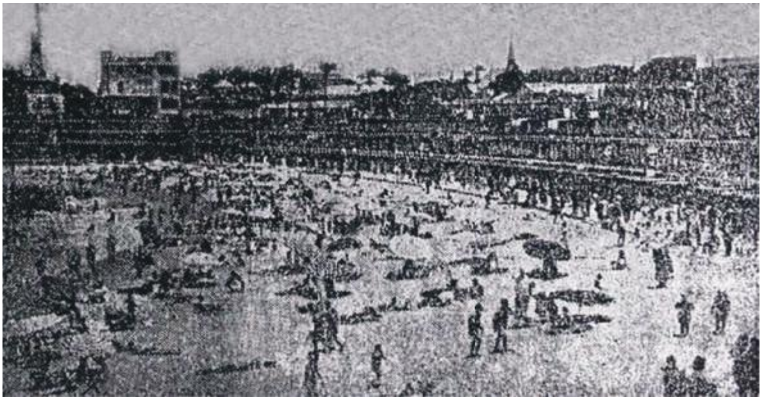

حمامات ستانلي باي بالإسكندرية.

بيطري ولست أريد أن أكتب له محضرًا، فقدَّم إليَّ قطعة طيِّبة، وقال إن ثمن الأقة عشرون قرشًا وجاء بورق لِلَفِّها يَزِن ربعَ الأقة.

وهذا الكلام يعرف معناه صاحب السعادة حامد الشواربي باشا مدير مجلس إسكندرية البلدي ويقدِّرُه المصطافون الكرام.

سهرة قبطية

وكانت سهرة قبطية في قهوة التجارة قوامُها الأساتذة الأرشديكون حبيب جرجس مدير المدرسة الإكليريكية، وعياد أبو الخير المحامي، وكامل جرجس من كبار أساتذة المدارس الثانوية، وكان الحديث طائفيًّا محضًا حتى منتصف الليل.

وأدرك شهرزاد الصباح.

الفصل الثاني

مع الحاجة شنطة

«الحاجة شنطة» عروس جديدة، من الوزن الثقيل نوعًا، على الطراز الأمريكي، صنعها فأبدع صُنْعها الأستاذ عبد المنعم سيد، خريج مدرسة الفنون التطبيقية، ومحلُّه من الإعراب في شارع حمدي على ناصية ميدان فخري بالظاهر.

واتسعت جوانبها لحمل ما يكفي الصحافيَّ العجوز شهرًا ويَقِيه جشعَ الغسالات ودلعَ المكوجية.

من الباب إلى الباب

وناديت بالتليفون «مكتب من الباب إلى الباب»، فأتى مَن وَزَنَها، وبقدرة قادر حملها من البيت إلى المحطة، ومن المحطة إلى القطار حتى الإسكندرية، وسلَّمها إلى بواب العمارة التي تحتوي على مكتب الصديق العزيز الأستاذ محمد عبد اللطيف المحامي.

وأشفق عليها البواب من ركوب الأسانسور، فاحتفظ بها تحت حَنِيَّة السُّلَّم إلى أن احتلَّت سيارة الأستاذ عبد اللطيف إلى رصيف المينا.

وكان الزميل الأستاذ محمود إبراهيم، صاحب الإكسبريس، قد أخافني من الزحام وقلة عدد العمال في مكتب الباسبورت ولخمتهم في التأشير.

ولكنني لم أجد من ذلك شيئًا بالمرة.

وربما كان الفضل في ذلك للزميل ورسائله في المقطم والبصير والصباح، فزِيدَ عددُ الموظفين لتسهيل التأشير والمرور على أهون سبيل.

وودَّعت الأستاذ عبد اللطيف على سُلَّم الباخرة «داسيا» شاكرًا له حفاوته وضيافته وأدبه.

على الباخرة داسيا

للمرة الأولى أركب إحدى بواخر الشركة الرومانية.

وكنت قد حاولت ذلك سنة ١٩٣٤ لرحلة مع الزميل العزيز المرحوم أحمد فؤاد صاحب الصاعقة إلى بلاد اليونان، ولكنه عدل في آخِر يوم، فقضينا الصيفَ في الإسكندرية معًا وفي غرفة واحدة في «الأوتيل ريش».

وسألت الصديق العزيز الأستاذ بركات بركات: هل تعرف الباخرة «داسيا»؟ قال: أُمَّال (بضم فتشديد)، وابور عال صغير محندق! دا لعبة! دا فايتون!

أما أنه صغير ومحندق، فكلام في محله.

ولكن هل يصدِّق أحدُ زبائن السفر إلى أوروبا أن كابينات الدرجة الأولى في باخرة كبيرة ذات ثلاثة أَسِرَّة وأربعة أَسِرَّة، وليس في هذه الدرجة إلا حمَّام واحد، والماء قليل في غرف النوم ودورات المياه؟

مع تاجر أديب

وأرشدوني إلى الكابينة الخاصة بي فوجدتها بها ثلاثة أَسِرَّة وضيفًا واحدًا تعرَّفتُ إليه، فإذا به تاجر شاب من أهالي طرابلس الشام اسمه «أدمون سعد»، وذكر لي أنه يتصل بالأدب عن طريق بعض أقاربه ومنهم جورجي يني صاحب مجلة «المباحث»، وديمتري خلاط بك، وآل نوفل ومنهم السيدة هند نوفل دبانة؛ أول سيدة شرقية أَسَّست مجلة عربية.

وخشيت أن يكون مصابًا بداء الشعر والسياسة، فأقفلت عليه البابَ بسؤاله عن عمله التجاري والأصناف التي يشتغل بها، ومن أين هو آتٍ، فحكى لي خبر رحلته إلى بلجيكا وهولانده وفرنسا وإيطاليا وغيرها من بلاد أوروبا.

الأكل في الباخرة

وكان التعب آخِذًا مني، فنمت ساعتين، وأيقظني الزميل مسعد لتناول غداء لم يكن لنا فيه حق، فقيَّدوا علينا الثمن وهو ٢١ قرشًا.

والطعام بلقاني الطبخ، كثير الأفاويه، طيِّب النكهة، أحسَنَ وصْفَه صاحبُ السمو الملكي الأمير محمد علي توفيق في كتابه «رحلة البوسنة والهرسك»، وهي أولى رحلاته المطبوعة لخمسٍ وثلاثين سنة خلَت.

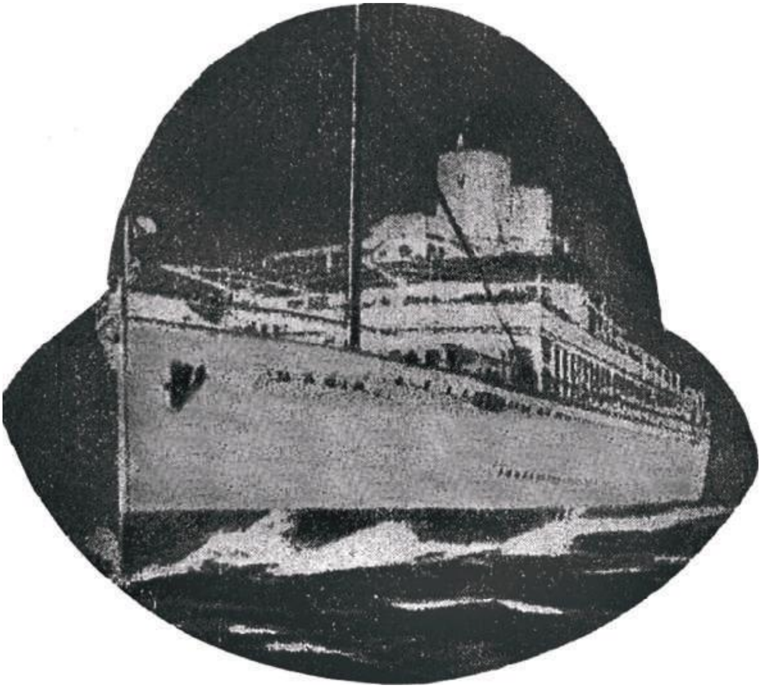

الباخرة داسيا.

إلى بيروت رأسًا

وكان البحر هائجًا مُزبِدًا، فقضى أغلب الركاب وقتَهم نومًا.

وكنت أظن أن الباخرة سَتَرْسُو في بورسعيد، ولكني علمت من الأستاذ مسعد أنها تقف في تل أفيف أو «عفيف» وحيفا.

قلت: وهل يمكن النزول لزيارة المدينتين أو إحداهما؟

قال: يجوز، ولكني لا أحاول ذلك وأنصح لك أن تفعل مثلي، فالحالة خَطِرة، وقد تُصاب بقنبلة خطأ، وقد تُقتَل لشُبهة.

وأخرجت ما أحمل من صُحف يومية، ووجَّهت نظري إلى أخبار فلسطين، فصمَّمت على العمل برأي صاحبي.

وتناولنا الطعام وأُدِيرت علينا القهوة في صالون به بيانو وراديو.

وأبَتْ أصابعُ أحد الخدم أن تترك مفتاح الراديو وتقليبه من بلد إلى بلد، كأنه يسابق هيوز في الطواف حول الأرض.

وعبثًا حاولتُ وقْفَه عن عمله بإسماعنا شيئًا من محطة مصر أو فلسطين أو إستانبول، وانتهى الأمر بأن تركتُ له القاعةَ إلى سريري وقضينا اليومَ الثاني على أحسن حال؛ إذ هدأ هياج البحر.

بعض زملاء الرحلة

وبدأت المقابلة والتعارُف، فقابلتُ الصديقَ الأديب الأستاذ شحاتة عبيد والسيدة قرينته، وعددًا من الشبان روَّاد رحلات «الأهرام» في أولمبياد برلين ومعرض باريس.

وتعرَّفت إلى الدكتور أحمد فؤاد الأستاذ بمدرسة الطب البيطري، والأستاذ محمد حلمي الطوبجي وكيل النيابة في محكمة عابدين والآنسة شقيقته، والأستاذ محمد فهمي عز المدرِّس في معهد التربية، وبعض المدرِّسين في مدرسة البوليس.

وكانت محادثات شهية بعيدة عن السياسة والحزبية.

ورسَت الباخرة في تل عفيف خارج الرصيف ونزل منها كثيرون وصعد قليلون، واكتفينا بالنظر إلى المدينة ونحن على بُعد.

وهكذا كان الحال في حيفا، فقد وصلنا إليها عصر يوم الاثنين ١٨ يوليو فرأينا بها دارعة إنجليزية واقفة إلى جانب الرصيف.

وأنزلت «داسيا» ركَّابًا وبضائعَ واستقبلتْ مِثلَهم.

بين حيفا وبيروت

وقُبَيل الغروب خرجتْ من الميناء تخلُّصًا من الرسوم ووقفتْ في عُرْض البحر، وحلَّ الظلام فتجلَّت حيفا في سربال من الأنوار المختلفة من شاطئ البحر إلى قمة جبل الكرمل المشرف عليها.

وبعدت يدُ الجرسون عن الراديو، فأطربَتْنا محطة القدس بمقطوعات بديعة من الموسيقى والغناء.

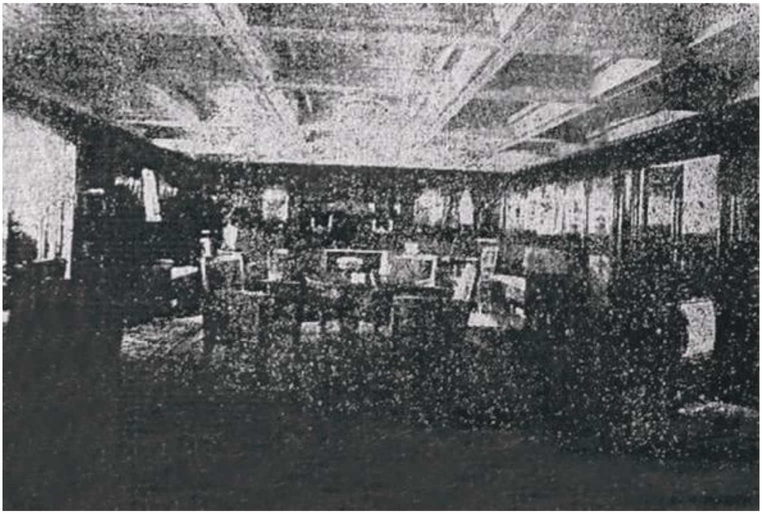

قاعة الموسيقى في الباخرة داسيا.

وأمضينا الساعات الأولى من الليل في العشاء والمسامرات وسماع الموسيقى من محطات مختلفة ومشاهدة أنوار حيفا.

ونام أغلب الركب قبل أن تحركت الباخرة إلى بيروت.

ووصلنا إلى مرفأ بيروت في الساعة السابعة صباحًا.

الفصل الثالث

أيام في بيروت (١)

بيروت بلد العلم والأدب والأناقة.

الشعر في كل شيء، حتى دوائر الأعمال الرسمية.

الدعاية للاصطياف شعرًا

قبل أن نزايل ساحة الجمرك، قدَّموا إلينا استفتاءً من «وزارة الاقتصاد الوطني في الجمهورية اللبنانية» مُصدَّرًا بالأبيات الآتية:

الله يا لبنان

الله يا لبنان ما أجملك! وأروع الشيب الذي جلَّلك!
بين يدَيْك الملك في جاهِه على الثَّرَى، أو عِزَّة في الفلك
الله يا لبنان ما أجملك!
سبحان مَن خبَّأ فيكِ «الصفا» وسلَّ مِن قلب الصفا جدولَك
أنت نعيمُ الله في وعده مثلت في النعماء من مثلك
تُقبِل الشمسُ ضحوكًا لها ويضحك الفجرُ متى قبَّلك
لبنان هيا نتشاكى الهوى لي التصابي فيك والسحر لك
اللَّه يا لبنان ما أجملك!

أمين تقي الدين

وجاء في هذه النبذة:

إلى زائري لبنان

إن وزارة الاقتصاد الوطني في الجمهورية اللبنانية، وجمعية تنشيط السياحة والاصطياف، ترحِّبان بكم وتتمنَّيان لكم إقامة سعيدة في ربوع لبنان.

ليس لجمعية تنشيط السياحة والاصطياف المعترَف بها رسميًّا كأداة لخدمة المصلحة العامة؛ أيُّ هدفٍ تجاري، وهي بالاتفاق مع وزارة الاقتصاد الوطني تَوَدُّ معرفةَ آرائكم ومَطالبكم وشَكواكم، حتى يمكنها الاهتمام بتحسين الاصطياف استنادًا إلى نصائحكم الغالية.

فنرجو الجواب على السؤالات المبيَّنة بجانبه، وأرسِلْها بدون طوابع بريد إلى وزارة الاقتصاد الوطني.

إن هذه الأسئلة منمرة، ويحقُّ لكل جواب يَرِد إلى جمعية تنشيط السياحة والاصطياف الاشتراك في اليانصيب الذي خُصِّصت له جوائزُ عديدة من صور وبطاقات تحوي مناظر هذه البلاد اللبنانية الخلَّابة.

حقًّا إنه لعمل طيب، وطريقة حكيمة لتعرف رأي المصطافين وملاحظاتهم؛ للوصول إلى تحسين المصايف وتحبيبها إلى الأجانب عامة، وأهل البلاد الشرقية خاصة.

اجتياز الميناء إلى المدينة

ولم نجِدْ أدنى صعوبة أو عنَت في النزول إلى الرصيف أو قاعة الكشف والتفتيش بدائرة الجمرك، ولم يحرك الموظفون مفاتيح «الحاجة شنطة» وابنتها وزميلاتها من حقائب الزوَّار المصريين.

ومن الجمرك أَقَلَّتْني سيارة إلى دار شيخي الخازن في شارع عبد الوهاب الإنكليزي، بجوار إدارة جريدته «البلاد» المعطَّلة بأمر السلطة، وقد انتهت مدة التعطيل، ولكن الشيخ أردف العطلةَ الجبرية بأخرى اختيارية تأهُّبًا لإعادة إصدار الجريدة يومية في ثماني صفحات.

وبعد التحية والقُبلات الحارة، جاء دور «الأكل بالإكراه»، فالنزول في الترام للزيارات الرسمية، وأولها زيارة الصديق العزيز الفيكونت طرازي مدير دار الكتب الأهلية ومؤسِّسها.

بيروت: شارع المعرض.

بيروت أمس واليوم

كانت زيارتي الوحيدة لبيروت ولبنان مرة واحدة سنة ١٩٢٧، وقد رأيت تغيرًا في بيروت اليوم عن بيروت الأمس.

عمارات جديدة على الطراز الحديث مؤلَّفة من خمسة أدوار وستة أدوار.

نظافة الشوارع واتساعها بإنقاص عرض الأرصفة.

وفرة عدد السيارات والتكسيات الأنيقة البديعة.

زيادة عدد الجرائد والمجلات.

بلد الجرائد اليومية

ففي بيروت، المدينة التي لا يزيد عدد سكانها على ١٢٠ ألف نسمة (أقل من قسم شبرا أو السيدة زينب أو بولاق)، نحو ٢٠ جريدة يومية (فقط)، وهي: البشير، النهار، اليوم، الحديث، صوت الأحرار، الأحوال، لسان الحال، البلاد، البيرق، المساء، الاتحاد، الدستور، البلاغ، الوطن، الجهاد، الرابطة.

وإلى جانبها ثلاث جرائد يومية فرنسوية، يديرها ويحرِّرها كتَّاب بيروتيون ولبنانيون، وهي: لوريان، ليجور، ولاسيري.

بيروت: ميدان الساعة.

وهذه الصحف كلها، سواء كانت ذات أربع صفحات أو ثماني صفحات، ذاتُ طابعٍ فني، يلمحه الصحافي الحاذق، بإلقاء أول نظرة على الصفحة الأولى؛ فإن ترتيبها المحكم وتنسيق الصور فيها أبدع وأرقى من زميلاتها المصرية، على ما هنالك من فارق عظيم بين فقر الجماعة وحاجتهم وغِنانا ويُسْرنا.

وصحف بيروت ولبنان رازحة تحت ديكتاتورية متعهِّدي البيع، فهم الآمِرون الناهون في الجريدة، يجب أن تعمل بأوامرهم في تحريرها وسياستها وساعة صدورها وجمعها وعدد صفحاتها وتنسيق مقالاتها ووضع صورها.

بين الكتب والتزكة

وكانت ساعة من أحلى الساعات عند الصديق العزيز الفيكونت طرازي، والتعرف إلى معاونيه وزوَّاره، ومنهم الشاب الأديب صلاح الأسير حفيد الشيخ الأسير الكبير.

وأسمعنا الفيكونت الشكوى المريرة من تقتير وزارة المعارف على المكتبة والإنفاق على شراء كتب جديدة.

وعُدْنا إلى بيت الشيخ الخازن للأكل بالإكراه.

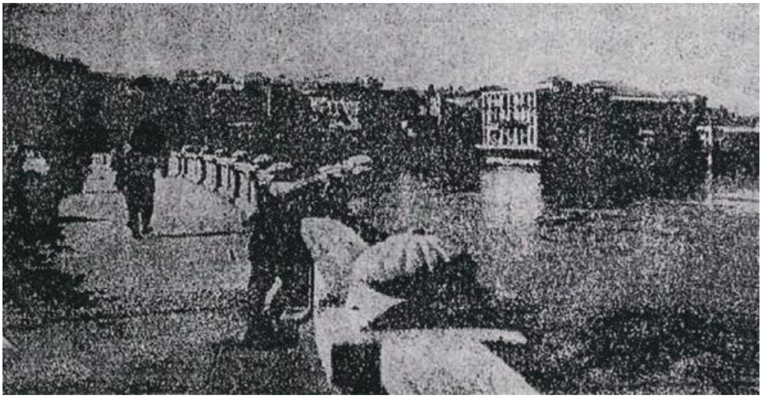

بيروت: حي الزيتونة على البحر.

ثم الحديث عن مباحث الشيخ في الأدب والتاريخ.

وعند المساء كانت أمسية مع الشيخ جوزيف الدحداح وزوجته والآنسة أملي الدحداح، عند «عجرم»، وهو أحد الكازينات البحرية المعروفة في بيروت وأوسعها وأحفلها بالزبائن والمستجمِّين على أنغام الموسيقى.

وكان لا بد من التزكة، وهي قنينة العرق المثلَّج وإلى جانبها عشرة من أطباق المَزَّة الفاخرة المتقنة.

ومررنا ليلًا بشارع الكورنيش متفرِّجين على ما فيه من ليدو وكيت كات وكورسال وغيرها من مطاعم ورباطات للسهر والرقص.

وهكذا انقضى اليوم الأول في بيروت على أحسن حال.

الفصل الرابع

أيام في بيروت (٢)

«جريدة البشير» من أقدم الصحف العربية الحاضرة في بيروت.

أنشأها أساتذتنا الآباء اليسوعيون لثمانٍ وستين سنة، وحرَّر فيها وتمرَّس على الكتابة غيرُ واحدٍ من كبار الصحافيين.

وكانت تَصدُر أسبوعية، ومرتَين فثلاثًا كل أسبوع.

وأخذت تصدر منذ سنواتٍ يوميةً في ثماني صفحات، منها صفحة كاملة للأدب في عدد يوم الأحد، لا مثيلَ لها في صُحُفنا على اختلاف أحجامها.

ويُطبَع البشير في مطابع الآباء اليسوعيين، وهي أتقن مطابع الشرق العربي وأحفلها بالحروف الشرقية القديمة والمسابك وأحدث آلات التصوير، وأوسعها بعد مطبعتنا الأميرية.

عند الآباء اليسوعيين

وصحبني الشيخ الخازن إلى إدارة البشير، وفيها تعرَّفت إلى الأب الجليل القس كورون الفرنسوي مدير الجريدة والمطابع، والأب لويس خليل رئيس التحرير وكاتب «على الهامش»، والأستاذ يوسف أبو صالح المحرر وكاتب الافتتاحيات ويمضي بتوقيع «أبو هاني»، والشيخ سمعان زخريا، قال لي الشيخ الخازن: وزخريا هو خير ريبورتر، وقَلَّ من كُتَّاب صحف بيروت من يبلغ شَأْوه في تحرير الريبورتاج.

وقابلت الأستاذ فؤاد بستاني خليفة الأب لويس شيخو في تحرير مجلة «المشرق» ومؤلف مجموعة «الروائع»، وهي الكتاب الذي عرف المؤلف كيف يلخِّص فيه عيونَ كتب الأدب العربي ويدوِّن تاريخَ أدباء كُتَّاب العربية قديمًا وحديثًا، بأسلوب لم يسبقه إليه سابقٌ أو يلحقه فيه لاحق، على وَفْرة عدد المتصدِّين لتدوين تاريخ الأدب العربي، بعد المرحوم جرجي زيدان.

مع الفيكونت طرازي

ومن مطبعة الآباء اليسوعيين إلى دار الكتب، وصحبت منها الفيكونت طرازي إلى الجامعة الأمريكية لزيارة المكتبة، فوجدناها مقفلة مثل باقي دوائر الجامعة ومعاهدها العلمية.

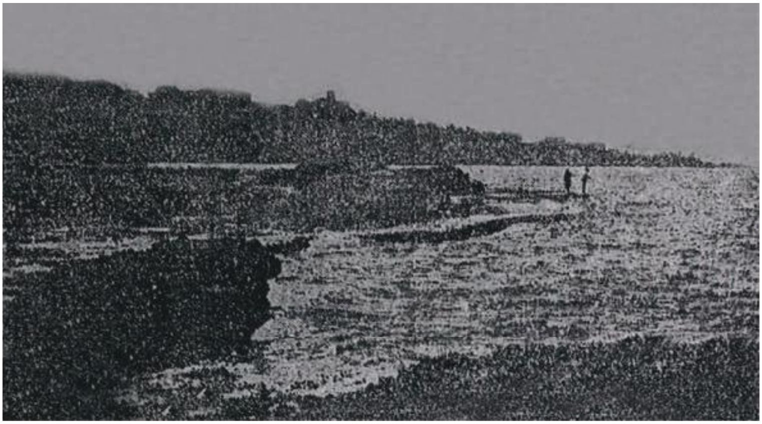

بيروت: شاطئ البحر عند الجامعة الأمريكية.

فعدنا إلى مطعم البحري، على الشاطئ وتكرزمنا فيه مع شيخنا الخازن والأديب الناشئ صلاح الأسير.

وأخذني الفيكونت إلى داره وأطلعني فيه على بعض ذخائر مجموعة الصحف، وكتابين كبيرين ضخمين أَعَدَّهما للطبع، وهما: «تاريخ خزائن الكتب العربية في الخافقين»، و«إرشاد الأعارب إلى تنسيق الكتب في المكاتب»، وهو دليل لتنظيم المكتبات طبقًا للطريقة العشرية، مع بعض تعديلات خاصة بالأدب العربي وكتب الدِّين والشرع.

على شاطئ البحر

وكانت سهرة مع آل الدحداح على البحر في جهة الدورة، وفيها التزكة مسنَدة إلى ما نُقِل من بيت الشيخ من طعام وفاكهة.

وفي طريق العودة متَّعْنا النظرَ بأنوار القرى والمصايف الصاعدة من جونيه وأنطلياس إلى بيت مري.

في ضواحي بيروت، منظر عام لبيت مري.

تحقيق صحفي ليلي

وكان في انتظارنا على باب بيت الخازن الأساتذة الزملاء أبو صالح وزخريا محرِّر البشير وفايق الخوري مُكاتِب البلاغ والبورص والصباح المصرية.

وجرى كلام متقطِّع عن الصحف في مصر ومقارَنتها بصحف لبنان، صاغ منه الأستاذ زخريا حديثًا «مع الصحافي العجوز» ملأ عمودَين طويلين من البشير، مُصدَّرًا بصورة كاتب هامش الأهرام.

حريق محلات أورزدي باك

وأصبحنا يوم الخميس ٢١ يوليو ولا حديثَ للناس في كل مكان غير خبر حريق محلات أورزدي باك عمر أفندي.

وكان باعة الصُّحُف ينادون عليها مُعلِنين الخبر وتفصيلاته بأفواههم؛ لأن الحريق وقع في الساعة الثالثة بعد نصف الليل، وصحف بيروت الصباحية تظهر عادةً في المساء مؤرَّخة بتاريخ اليوم التالي فلم تلحق الحادث.

ساعات في عالية

وبدأت بالصعود إلى الجبل مبتدِئًا بزيارة عالية، وفيها قابلتُ الأستاذ رشيد كنعان.

والأستاذ رشيد كنعان، كَهْل قضى أيامَ شبابه ورجولته في العمل بمحاكم لبنان، ثم استقال للاشتغال بالمحاماة.

قال لي بعد التحية: لقد رأيتُك قبل اليوم!

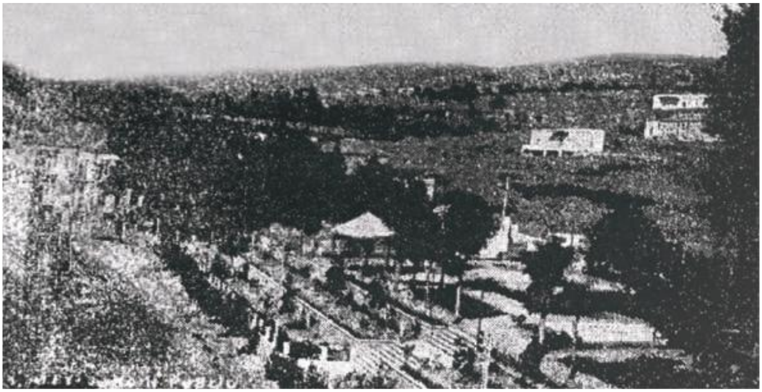

الحدائق العامة في عالية.

قلت: وأين كان ذلك؟

قال: سنة ١٩١٣ في مصر، وقد عرَّفني إليك المرحوم أمين تقي الدين، واجتمعت بك غير مرة في الاسبلندد بار وبيوت بعض الأصدقاء.

وذكَّرني بمقالة كنت كتبتها في مجلة «الزهور» بعنوان «طربوشي بانتوفلي».

وصحبت الأستاذ كنعان إلى قصر بسترس الذي تصطاف فيه صاحبة العظمة السلطانة ملَك، وهو من قصور مصايف لبنان المعدودة بفخامتها وما يحيط بها من حدائق غَنَّاء.

واستقبلنا الباش آغا بالإكرام، وقُدِّمَتْ إلينا القهوة والسجاير وقيَّدْنا اسمَيْنا في سجل التشريفات.

وفي الطريق قال لي الأستاذ كنعان: يا أخي، بدون تكليف، ما عندنا شيء اليوم، أكلة ملوخية مصرية لا غير.

وفي دار الأستاذ كنعان كانت الحفاوة والترحيب والمؤانَسة ورفع التكليف، وشكوى ربة الدار من وفرة كتب زوجها التي تملأ الخزائنَ والسحاحير.

من عالية إلى بحمدون

منظر عام لبحمدون.

ومن عالية إلى بحمدون؛ المصيف المشهور الذي يفضِّله على غيره الكثيرون من المصريين والسوريين واللبنانيين المتمصرين.

وقد صحبني في زيارة بحمدون الأستاذُ كنعان والسيدة زوجته وابنه، وقصدت توًّا إلى «فندق مصر» لزيارة الدكتور ريحان من أساتذة الجامعة الأمريكية ببيروت، ثم الأستاذ أبو شهلا صاحب مجلة «الجمهور» في داره.

وبيوت بحمدون وفنادقها على أحسن ما يُرى من الترتيب والنظام والرِّيَاش، وأنديتها وكازيناتها غاصَّة بالمصطافين يلهون بألعاب النَّرْد والدومينو وسماع الموسيقى.

وكانت رحلة ليلية موفَّقة من بحمدون إلى بيروت وسطَ القرى التي تتلألأ أنوارُها الزاهرة.

وعبثًا نادى الشوفير على راكب إلى عالية أو بيروت، ولا حياة، ولكن الشوفير لم يَشْكُ ولم يتذمَّر ولم يسُب، بل حرَّك الديركسيون وسار يقطع الطريق المعبَّدة حتى أوصلني إلى بيروت على أحسن حال.

الفصل الخامس

أيام في بيروت (٣)

«البيرق» جريدة الأستاذ أسعد عقل جريدة يومية، وصاحبها ورئيس تحريرها مُكاتِب «الأهرام» في بيروت ولبنان، فمكتبه توكيل «الأهرام»، وزيارته واجبة للتحية والتعارُف بالزملاء من المحرِّرين.

سألت عن الأستاذ عقل، فعلمت أنه متوعِّك المِزاج، ويقضي فصل الصيف في الجبل، ومن مصيفه يرسل يوميًّا المقالَ الافتتاحي وتعليماته إلى مكتب الإدارة ومكتب التحرير.

بين الزملاء والرصفاء

وفي إدارة «البيرق» وجدتُ الأستاذ نسيب المتني.

وكان الوقت ظهرًا، والأستاذ نسيب مُشرِف على إصدار العدد، وأدركتُ موقفه فاكتفيت منه بفنجان القهوة، والسؤال عن الأستاذ فؤاد حبيش، صاحب جريدة المكشوف، وهل هو في مكتبه أو غائب عنه، فكان الجواب أن أرسل الأستاذ حبيش أحد موظفي الجريدة ليصحبني إلى داره.

وجريدة «المكشوف»، وبعبارة أدق مجلة «المكشوف»، هي اليومَ رسولُ الأدب العربي والصحيفة العربية الوحيدة التي تُعنى بمعالجة الأدب العصري المتحرك.

ودار المكشوف مجتمَعُ أدباء الشباب في سوريا ولبنان ومَن يقصدون إلى لبنان من كُتَّاب العربية وشعرائها.

وفي دار المكشوف وجدت الآنسة جميلة العلايلي، الأديبة المصرية المعروفة بشِعرها ونَثْرها وتخصُّصها في التربية واشتغالها بالتعليم في مدرسة البنات الأميرية بالمنصورة.

وجرى الكلام طبعًا في الأدب وغير الأدب بعبارة قصيرة وجيزة، وأبدت الآنسة جميلة أسفَها لما شاهدته في كشافة لبنان من إهمال الحكومة لها.

من مناظر بيروت: شارع الجنرال ويجند.

حديث عن الأدب

ثم انصرفتْ مستأذِنة، وحضر على الأثر الأستاذ عمر فاخوري من كبار كُتَّاب الأدب، وأهدى إليَّ نسخةً من روايته «الباب المرصود»، ولبِث طول الوقت ساكتًا مستمعًا لحديث الأستاذ فؤاد حبيش عن الأدب وما تستهدف له مصر من ابتعادها عن العالَم العربي والكتابة عن أدباء البلاد العربية.

فشرَحتُ له حال الأدب والأدباء والكتابة والتأليف والمطالَعة والقُرَّاء في مصر، على ما أعرفه عمليًّا.

ورأيته غير مقتنع، فوعدته — كما وعدت الأستاذ صلاح الأسير — بأنني سأقوم بواجبي في الدعاية للأدب العربي في العالم العربي بقدر استطاعتي وما أملك من جهد.

وقبل أن أنصرف من دار المكشوف زوَّدني الأستاذ حبيش ببعض ما انتقيتُه من مطبوعاته والمطبوعات الأدبية التي أَعَدَّها للبيع في مكتبة المكشوف.

إلى بكفيا وضهور الشوير

وخصَّصت يوم السبت ٢٣ يوليو لطلعة إلى الجبل لزيارة الصديق العزيز الأستاذ عزيز الهاشم في بكفيا، والدكتور أسد رستم في ضهور الشوير.

والأستاذ عزيز الهاشم مصري المولد والنشأة، تركنا مع السيدة والدته وأخيه الأستاذ يوسف الهاشم بعد الحرب.

واشتغل في القضاء، ثم عافت نفْسُه الوظيفةَ فتركها ولبس روب المحاماة وانغمس في لُجَّة السياسة مدافِعًا عن حقوق بلاده.

وكانت رحلة صباحية بديعة بالسير إلى جانب البحر، ثم الصعود إلى الجبل من أنطلياس إلى عين عار، فغيرها من القرى والبلاد العامرة ذات المباني الحجرية.

منظر عام لمدينة بكفيا.

ساعات في بكفيا

وأنزلني الشوفير أمام بيت الهاشم، واستقبلني الأستاذ الصديق بوجهه الصبوح وابتسامته الحلوة، وأدخلني الغرفة التي ترقد فيها السيدة والدته المريضة، فسلَّمت ودعوت لها بالشفاء.

ثم عرَّفني إلى ضيفَيْه الأستاذ عزيز الريس المدرس في مدرسة شبين الكوم الأميرية، والأستاذ يوسف كحيل من موظفي حكومة السودان السابقين.

وكانت المائدة العامرة والحديث الطلي عن السياسة المصرية، فالقيلولة المريحة فوداع السيدة الوالدة، فزيارة الأستاذة يوسف أوغسطين مدير إدارة «الأهرام» وشقيقه في دارهما وتناوُل الشربات والقهوة.

في دار الأستاذ أسد رستم

وأخذت سيارة أخرى إلى ضهور الشوير وقصدت توًّا إلى دار الدكتور رستم، فإذا بي في مجمع حافل بأهل الوجاهة والفضل يتقدَّمهم غبطة السيد ألكسندروس طحان بطريرك الكرسي الأنطاكي للروم الأرثوذكس واثنان من كبار رجال الدين.

ومعالي حقي العظم بك رئيس مجلس شورى الدولة السابق للجمهورية السورية.

وسمو الداماد أحمد نامي بك الرئيس السابق للدولة السورية.

والوجيه محمد المنير بك من أعيان دمشق.

وفارس مشرق بك الرجل اللبناني الذي كان له الفضل في إنشاء ضهور الشوير والمحافظة على أهالي بلده أيام الحرب العظمى، وإنشاء المعارض للنسيج والصناعات الوطنية، وصديق كبار المصريين من أمراء ووزراء. وقد عرف أهل الشوير فضْلَه فأقاموا له تمثالًا هو الوحيد في الجبل كله لشخص من الأحياء.

وابن عمه الدكتور مشرق الطبيب المعروف في مصر.

والأستاذ حليم دموس الشاعر.

والأستاذ حنا خباز الكاتب الرَّحَّالة المشهور.

والدكتور شارل مالك أستاذ الفلسفة.

والدكتور قسطنطين زريق أستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة الأمريكية ببيروت.

وكان يزين المجلس عددٌ من السيدات والآنسات.

وقامت السيدة ربة الدار وبعض الأوانس بتقديم الشاي وملحقاته.

وكان الحديث الشهي الممتع عن مصر وسوريا ولبنان.

ليلة مصرية في فندق الروضة

ثم أخذ الجميع في الانصراف، وصحبتي معالي حقي العظم بك إلى قهوة السلوى، وتذكرنا الماضي وأيام الاسبلندد بار، وأقلَّتنا سيارة إلى فندق «الروضة» الذي قررت أن أقضي ليلتي فيه، وودَّعني على أمل المقابلة في اليوم التالي.

وكانت تنير فرندة الفندق السيدة إيزابل حبيش قرينة الصديق العزيز الأستاذ حميد حبيش الموظف في وزارة الداخلية المصرية.

فتبادلنا التحية والسلام وقدَّمتني إلى نزلاء الفندق ومعظمهم من المصريين.

قالت: وما رأيك في هذا الفندق؟

قلت: لا عيب فيه إلا بعده عن منطقة القهاوي والأندية العامة والكازينات.

قالت: بل حلاوته في كدا، فإن زبائنه كلهم من العائلات الكريمة التي تأتي للابتعاد عن دوشة القهاوي ووجع الرأس في قرقعة الطاولة والدومينو.

ولم تمضِ دقائق حتى شعرت أنني في مصر ولست في لبنان.

الراديو المصري ينقل إلينا أخبار مصر والتلغرافات الواردة إلى مصر عن زيارة محمد محمود باشا لإنكلترا، وأغاني عبد الوهاب وأم كلثوم.

وهذا بائع الجرائد ينادي على جرائدنا ومجلاتنا المنقولة على الطيارة وفي القطار والسيارة.

والإخوان كلهم لا حديثَ لهم إلا مصر وشئون مصر.

وقبل الانصراف من السهرة تعرَّفت إلى الخواجا يوسف غانم صاحب الفندق، فطاف بي أرجاءه وأطْلَعني على قاعاته وغُرف النوم فيه والحمَّامات، فذكرتُ له زيارتي للضهور سنة ١٩٢٧ وندرة المياه فيها، فقال: لقد تبدلت الحال، والماء على ما تريد في كل غرفة.

وفي الصباح زارني معالي حقي العظم بك والأستاذ الصديق خليل الخوري القاضي في محاكم السودان سابقًا، والدكتور أسد رستم، والشاعر حليم دموس.

وكان في عزمي الانصراف صباحًا، ولكن صاحب الفندق أبى إلا أن يضيِّفني لغدوة «مغربية».

وجلس في الفرندة طبالٌ إيطالي أكل الدهر عليه وشرب، يقرع طبلة جازبند وناقوسها بيدَيْه ورجلَيْه، ويشترك معه الراديو حينًا والفنوغراف آخَر، على أن يلبي أحد دعوته للرقص، فلم يظفر بطائل وأخيرًا استسلم للنوم.

الفصل السادس

أيام في بيروت (٤)

كانت كرزمة «المغربية» غدوةً شهية سخية في وسَطٍ مصري راقٍ يقوم على خدمته الخواجا يوسف غانم، ويؤانس زبائنه كأنهم ضيوف عليه.

وبعد الأكل والقهوة ومحادَثة قصيرة مع بعضهم أركبني الخواجا غانم تكسًا أقلَّتني في عشر دقائق إلى بكفيا.

وفي بكفيا تسلَّمني شوفير اسمه «صفر»، وقال: «أنت تجلس إلى جانبي؛ لأن هناك شحنة من الأخوات الراهبات ستحتلُّ المقعدَ الداخلي.»

وطال الوقت، وأكثر الشوفير من التبويق والتزمير، وأخيرًا حضرت أربع راهبات، استقبلهن صاحبي بجفاف، وعبثًا تلطَّفْنَ به وأكثرن من الاعتذار.

وكانت دورات، وكانت لفَّات، من دير إلى كنيسة إلى دار، تنزل راهبة وتصعد أخرى، ومن هنا مفتاح، ومن هناك مفتاح، إلى أن انتهى بهنَّ الأمر إلى ثلاث راهبات وحقيبة متوسطة، وسار بنا أخونا صفر لا يلوي على شيء، حتى أدخَلْنا الأخوات إلى دير في حي اليسوعية.

وتنفَّس صفر الصعداء، وسخط على الصناعة وزبائنها الذين يطلعون الروح، وأنزلني في ساحة البرج، فركبت الترام إلى دار الفيكونت طرازي.

وأمضيت عنده الليل في مراجَعة أعداد قديمة من مجموعته الصحافية ونقل فصول منها، وسماع فصول من كتابه الجديد في المكتبات عند العرب.

وبكَّرتُ صباحًا إلى منزل شيخنا الخازن لأُطمئِنَه على أنني لا أزال حيًّا أُرزَق، ولم أضِل طريقي في المدينة والجبل، ونزلت إلى المدينة لوداع بعض الإخوان وزيارة الآخرين، فزرت إدارة البرق، ومنها إلى دار المكشوف، ووجدت فيها كالعادة بعض الفتيان من الأدباء الناشئين.

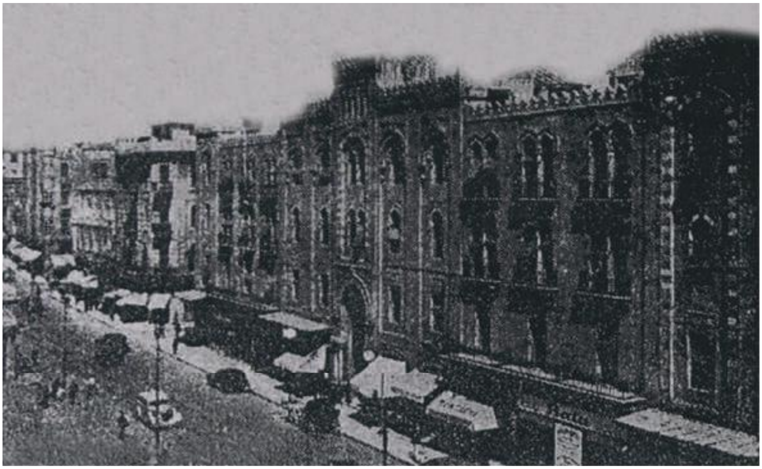

بيروت: المجلس البلدي.

ثم صعدت إلى إدارة «صوت الشعب»؛ لسان حال الشيوعية في لبنان، وحييتُ الرفاق، وقدَّمتُ إليهم نفسي، فحدَّثوني عن جريدتهم وحزبهم، قائلين إن صحيفتهم كانت يومية، وتصدر الآن أسبوعية إلى أن يتم الاكتتاب لإنشاء مطبعة خاصة بها.

قالوا: ومع أننا شيوعيون، ولكننا لا نعمل لنشر مبادئ الشيوعية وأغراضها، بل نسعى لخدمة العمَّال وتحقيق أغراض الشعب الفقير.

وفي طريقي إلى دار الكتب، قابلتُ الصديقتَين العزيزتين السيدة نازلي مظهر سعيد المفتشة بالمعارف، وشقيقتها الآنسة زينب الحكيم المربية المعروفة، فصحبتهما لمقابلة الفيكونت طرازي.

ومن المصادَفات الغريبة أنْ وجدنا عنده الأستاذ جورج باز الكاتب المعروف بمباحثه في «النسائيات»، وتدوين سِيَر «شهيرات السيدات».

وأُعجِبتِ السيدتان المصريتان بغرفة المطالَعة، وترتيب الفيش بأسماء المؤلِّفين وأسماء الكتب وتقسيمها تبعًا للطريقة العشرية.

وأطالت الآنسة زينب النظر في الصور التي ملأت الجدران، وسألت: لماذا اقتصرت هذه الصور على الرجال، وليس فيها صورٌ لسيدات؟

فأجاب الموظف الذي كان يرافقنا: لأن هؤلاء الرجال كلهم ممَّن خدموا النهضةَ الحاضرة بأقلامهم في التأليف والتعريب والنَّظْم وتحرير الصحف، ومتى وُجِدت سيداتٌ من هذا الصنف، فإننا لا نتأخَّر عن تزيين دارنا بصورهن.

وانتهت دورتي بزيارة دار جريدة «الحديث»، فاستقبلني صاحبها خيرَ استقبال، وهنَّأته بفصل محكَم كان قد كتبه منذ يومين في موضوع المؤتمر البرلماني العربي الذي يدعو إليه سعادة علوبة باشا.

ومن رأي الكاتب أنه يجب التريُّث في قبول الدعوة؛ لأنه ليس من حق أعضاء البرلمانات التدخُّل في أمورِ دولٍ أجنبية بأي حال من الأحوال.

وفي دار «الحديث» تشرَّفت بمعرفة اثنين من الزملاء المحررين، وتبسطنا ساعةً في الحديث عن حال الصحافة والسياسة والأدب في الأقطار الشقيقة.

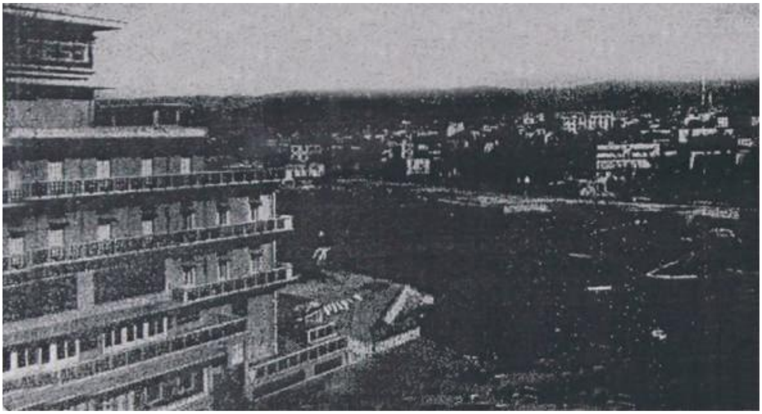

من مناظر بيروت: فندق سان جورج على البحر.

ولم يبْقَ في الوقت متسعٌ لزيارات أخرى، ومنها زيارة الأستاذ التويني صاحب «صوت الأحرار»، والأستاذ رامز سركيس صاحب «لسان الحال»، وسليم صادر الكتبي المشهور، والآنسة بلانش عمون المحامية المعروفة وكريمة الصديق المرحوم داود عمون بك.

الناس يأتون إلى بيروت ولبنان للنزهة والرياضة.

ولكن الصحافي العجوز محكومٌ عليه باللف والبرم في المكتبات وإدارات الصحف.

في هذه الزيارات لذَّة قد لا يشعر بها غيري.

وقد كفاني الأسبوع الذي قضيته في المدينة والجبل؛ لتعرف سوء الحال الذي وصلتْ إليه البلاد بهبوط الفرنك، وارتباط العملة السورية به.

ولكن البلاد تقاوِم وتكافِح وتجاهِد في سبيل التقدُّم والارتقاء بخطوات واسعة.

ويظهر أثر ذلك في إدارات الصحف والبيوت والشوارع وفترينات الأثاث والسيارات الفخمة.

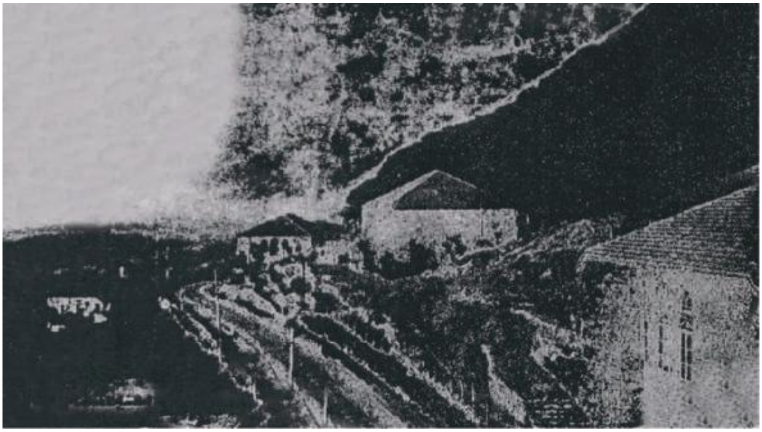

من مناظر جبل لبنان: الطريق من سوق الغرب إلى عالية.

على أن الظاهرة العظمى هي المصايف، التي تكاتفت على تحسينها أيدي الحكومة والبلديات ومكتب السياحة وأصحاب الفنادق وأصحاب الدور المؤثَّثة المعَدَّة للإيجار.

وإذا كانت جبال لبنان قد خلَتْ من الفنادق الكبرى التي يراها زوَّار سويسرا في مونتروه وبرن وزوريخ سان موريتز، فإن ذلك لا يرجع إلى تقصير اللبنانيين، بل إلى طبقة المصطافين الذين يقصدون إلى جبال لبنان.

ولكن في لبنان عدد يُذكَر من الفنادق المتوسطة البديعة التي تجمع بين الرفاه والأناقة والبساطة، وإلى جانبها العشرات من البانسيونات والمنازل والشقق والغرف المفروشة.

وإذا كانت اضطرابات فلسطين قد حالَتْ دون اصطياف الكثيرين من المصريين والفلسطينيين في هذه السنة، فإن السنوات القادمة مبشِّرةٌ بالإقبال العظيم، حيث يجد المصطافون ما لا يجدونه في مصايف أوروبا من اتفاق في العادات والأخلاق والأطعمة واللغة والأدب والمؤانَسة، سواء في حياة الفنادق المرِحة، وحياة البيوت المطمئنَّة الساذجة.

والاصطياف في لبنان بتراب الفلوس بحكم نزول الفرنك، فقروشُ القومِ اليومَ مليمات، وليراتهم «حتت بعشرات»، وما يصرفه المصري في عشوة أو سهرة في مونبرناس باريس أو بيكادلي لندن أو رنج فينا يكفيه للصرف أسبوعًا أو أكثر في أبدع فنادق صوفر وبحمدون وضهور الشوير وبيت مري.

ولعنة الله على «البروجرام» الذي حرمني من المتعة أسبوعَين في هذا النعيم المقيم.

الفصل السابع

في الباخرة تراكي

يوم الثلاثاء ٢٦ يوليو، وداع بيروت.

«اسمع منا، بلاش اليونان السنة دي، أنا أجي معك إلى الشركة لتأجيل التذكرة، وتطلع معنا الجبل.» هكذا قال لي شيخي الخازن، فاعتذرت عن قبول هذه الدعوة الأخوية.

وجاء الشوفير النشيط، وحمل «الحاجة شنطة» وأختها، وسار بي إلى البوستة العمومية، فأرسلت منها ما كنت أحمله من رسائل.

ومن البوستة إلى الميناء، مارًّا بديوان الجمرك.

الخروج من الجمرك

وفي الجمرك لاقاني شيخي الصغير جوزيف الدحاح، فسهل لي التأشير على الباسبورت وتمرير «الحاجة» بدون تحريك مفتاحها، ثم نقلها معي في رفاص بخاري إلى الباخرة «تراكي».

و«تراكي» باخرة يونانية دمًا ولحمًا وقبطانًا وضباطًا وخدمًا وأكلًا وشربًا.

خرجت من بيروت ظهرًا متمهلة، وسارت متاخمة الشاطئ البديع الحافل بمدنه وقراه والجبال المشرفة عليه، حتى وصلنا إلى مدينة طرابلس الشام في الساعة الرابعة بعد الظهر.

وهنا وقفت في عرض البحر، وصعد إليها بعض الركاب وطبيب الكورنتينا وبعض عمال الميناء، فملَئوا الباخرة بهجة بمحادثاتهم ومنادماتهم وهم يتناولون شاي الساعة الخامسة.

صديقتان عزيزتان

وطفقت أفتش عن راكب مصري أو مسافر يوناني يتكلم العربية، فكان من حسن الحظ أن قابلت الصديقتين العزيزتين السيدة نازلي مظهر سعيد، وأختها السيدة زينب الحكيم.

وكان التعب قد أخذ مني، فعمدت إلى غرفة النوم، ولم أبرحها إلا ساعة العشاء.

ليس في الباخرة ما يستحق الذكر إلا الراديو الذي أخذت يد العامل تتلاعب بمفتاحه، فتحوله كل دقيقتين إلى محطة.

السيدة نازلي مظهر سعيد.

على شواطئ قبرص

وأصبحنا يوم الأربعاء ٢٧ يوليو في قبرص، فوقفت الباخرة إلى جانب الرصيف في مينا فاماجوستا، واجتمعت الخلائق من باعة فاكهة وصور ومرطبات وحمالين وسائقي تكسيات.

وسألت عمَّا إذا كان ما يمنع من النزول إلى المدينة، فقيل لي: إن الوقت راح.

وخرجنا من فاماجوستا إلى لارنكا، ومن لارنكا إلى ليماسول، وفي كل من المدينتين الساحليتين وقفة نحو ثلاث ساعات في عرض البحر لنقل الركاب والبضائع في زوارق بخارية وشراعية.

وانقضى يوم الأربعاء، ولا بد من يومين طويلين للوصول إلى بيريه.

فعمدت إلى ما بقي معي من جرائد بيروت ولبنان فقرأتها، وإلى مجلة مصرية فأتيت عليها.

وكتبت رسائل وحررت هامشًا، ودوَّنت فصلًا عن رودس، ولكن ذلك كله لم ينفع لقطع الوقت.

الشقيقتان الرحالتان

وبارك الله في الشقيقتين العزيزتين.

فقد ألفتا حلقة ذكرتنا بصالون السيدة نازلي في الجيزة، وصالون الآنسة زينب في حدائق القبة.

والسيدتان الكريمتان جوابتان تغادران مصر من سنة إلى أخرى، للبحث والتنقيب ودراسة أحوال البلاد والعباد، فجابت السيدة نازلي بلاد أوروبا كلها وزارت شمال أفريقيا، وقضت في العراق سنتين.

وتبعتها الآنسة زينب هذه السنة، فصحبت وفد الأطباء المصريين إلى بغداد في شهر فبراير الماضي، وحضرت جلسات المؤتمر الطبي، ثم قضت في مدينة الملك غازي شهرين، وخرجت منها إلى الموصل وكردستان، ووصلت في رحلتها إلى حدود إيران، ثم عادت إلى الشام ولبنان دارسة منقبة عن الشئون العامة والمرأة والحياة المنزلية خاصة.

وكانت أينما حلت وسارت موضعَ الإكرام والإعزاز، وقد جمعت معلومات دقيقة وافية وكميات من الصور والرسوم، وفي نيتها أن تؤلف منها كتابًا في ثلاثة أجزاء.

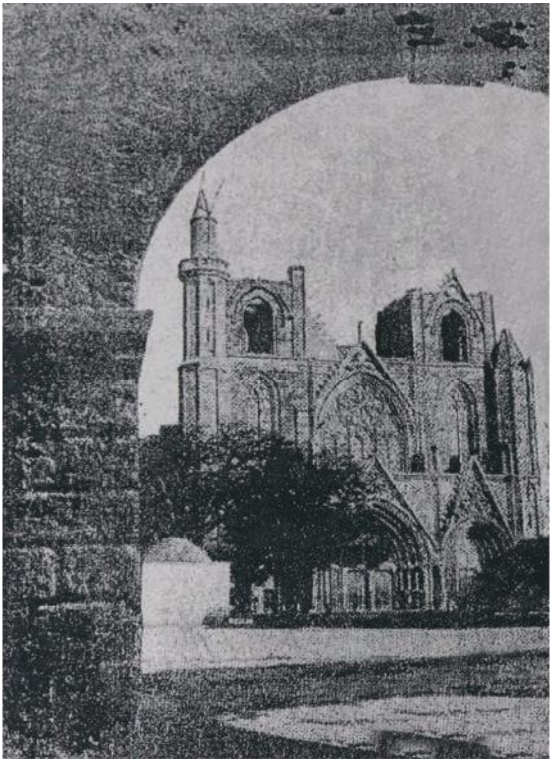

دير القديس نقولا في فاماجوستا (قبرص).

وتقابلت الشقيقتان في دمشق، على أن تسافرا معًا إلى أثينا، ثم إلى فينا ومونيخ، وغيرهما من بلاد أوروبا الوسطى لحضور بعض المؤتمرات العلمية ومعرض التلفزة الدولي.

وقضيت الساعات في سماع أخبار هذه الرحلة الشرقية، التي قامت بها فتاة مصرية بمفردها، متجشِّمة الأتعاب، مُنفِقة من مالها الخاص على الاستطلاع وتعرُّف أحوال البلاد والعباد التي لا تكفي لدراستها مطالعة الكتب وقراءة رحلات الرواد.

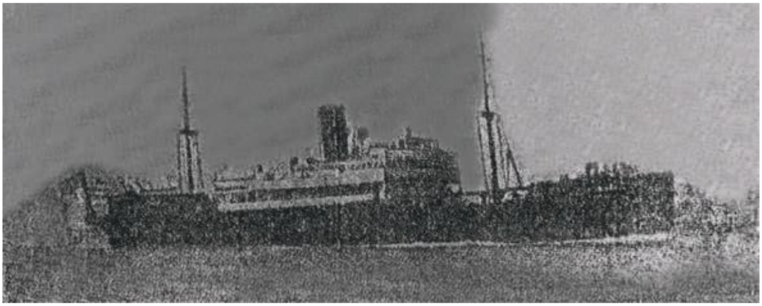

الباخرة تراكي.

حديث عن التربية والتعليم

وأسهبت السيدة نازلي في تفصيل ما عرفته عن العراق وحالة التربية والتعليم فيه، وأسباب حادثة الأستاذين سيف وعزمي، وما يجب على مصر وحكومتها عمله لخدمة العراق، ولخير الأساتذة المصريين الذين يرسُلون للتعليم في هذه البلاد.

وانتقلت من حديث العراق إلى مقارنات ومقابلات في التربية والتعليم بمصر والبلاد العربية.

واقتبست من حديثها الممتع الكثير من المعلومات عن أعمال التفتيش في مدارس وزارة المعارف المصرية.

واليوم الجمعة ٢٩ يوليو، والباخرة تشق عُباب البحر، وعند الظهر أخذنا نجتاز سلسلة الجزر اليونانية الصغيرة.

وأعلن القبطان أن الوصول إلى بيريه سيكون متأخرًا، فنصل إليها عند منتصف الليل بدلًا من الساعة السادسة مساء.

الفصل الثامن

قبرص قديمًا وحديثًا

ليست قبرص غريبة عنا أو بعيدة؛ فإنه بطائرات طلعت حرب باشا لا تزيد المسافة بين مطار ألماظة ومطار ليماسول على ثلاث ساعات.

ولقبرص تاريخ حافل بالمآثر.

وإذا نحن طرحنا «المتيولوجيا» جانبًا، فهناك صفحات مجيدة في المدنية التي عملت قبرص لنشرها مع آبائنا الفراعنة الغر الميامين.

من الفراعنة إلى الرومان

وكان اتصالنا المباشر بهذه الجزيرة في عهد مليكنا الفرعون تحوتمس الثالث، الذي غزاها سنة ١٤٥٠ قبل الميلاد.

ولم ينبئنا التاريخ عن مدى حكم المصريين لها ومتى انفصلت عنَّا، ولكنه يؤكد أن الفرعون أمازيس أحد ملوك العائلة الثامنة عشرة غزاها وأخضعها لمصر.

وبقيَت تابعة لنا حتى جاء قمبيز الغازي، وافتتح مصر وضم قبرص إلى حكومته.

واحتدم النزاع على الجزيرة بين الفرس واليونان، إلى أن أدخلها إسكندر ذو القرنين في أملاكه الواسعة، ثم كانت بعده من نصيب القائد أنتيجون، فجزءاً من أملاك البطالسة، ثم غزاها الرومان وعيَّنُوا شيشيرون حاكمًا عليها، وله في وصفها رسائل معروفة.

ونزل إليها القديس بولس في القرن الأول للميلاد مبشِّرًا بالمسيحية، فتنصَّر على يديه كثير من القبارصة وحاكمهم سرجيوس.

ولما انقسمت حكومة روما إلى دولتين: شرقية وغربية، صارت قبرص من بلاد الدولة الشرقية البيزنطية.

فتح المسلمين قبرص

وغزاها العرب على يد معاوية بن أبي سفيان سنة ٢٨ للهجرة/٦٣٢ ميلادية، وكان معه جماعة من الصحابة فيهم أبو ذر وعبادة بن الصامت وزوجته أم حِرام، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس.

وكان معاوية قد لَجَّ على عمر بن الخطاب في غزو البحر لقرب الروم من حمص، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يقول له: صف لي البحر وراكبه. فأخافه عمرو.

فلما كان زمن عثمان بن عفان، كتب إليه معاوية يستأذنه في غزو البحر، فأذن مشترطًا أن يكون التجنيد اختيارًا، قال: لا تنتخب الناس، ولا تقرع بينهم، خيِّرهم، من اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعِنه.

وجهز المسلمون أول أسطول لهم لغزو قبرص بقيادة عبد الله بن قيس، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر في سفن أقلعت من الإسكندرية.

واجتمعوا عليها، فصالحهم أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة، يؤدون إلى الروم مثلها، وأن يكونوا للمسلمين عينًا على عدوهم.

وماتت أم حِرام بسقوطها على بغلتها في قبرص، فدُفِنَت على مقربة من لارنكا، وشيد على قبرها مسجد يؤمه مسلمو الجزيرة والجزر اليونانية القريبة للتبرك.

في أيام البيزنطيين والصليبيين

ثم استرجع البيزنطيون قبرص في منتصف القرن التاسع.

ونزل الصليبيون إلى ليماسول، وفيها تزوج ريشار (قلب الأسد) برنجريا، التي أصبحت بعدُ ملكة إنكلترا.

واحتاج قلب الأسد إلى مبلغ من المال لتموين الحرب الصليبية الثالثة، فباع قبرص إلى جماعة الفرسان الهيكليين، ولكنهم لم يحسنوا سياستها، فقبض على دفة الحكم فيها جي ده لوزنيان.

وفي عهد أحفاده ازدهرت الفنون والآداب والعمارة في قبرص.

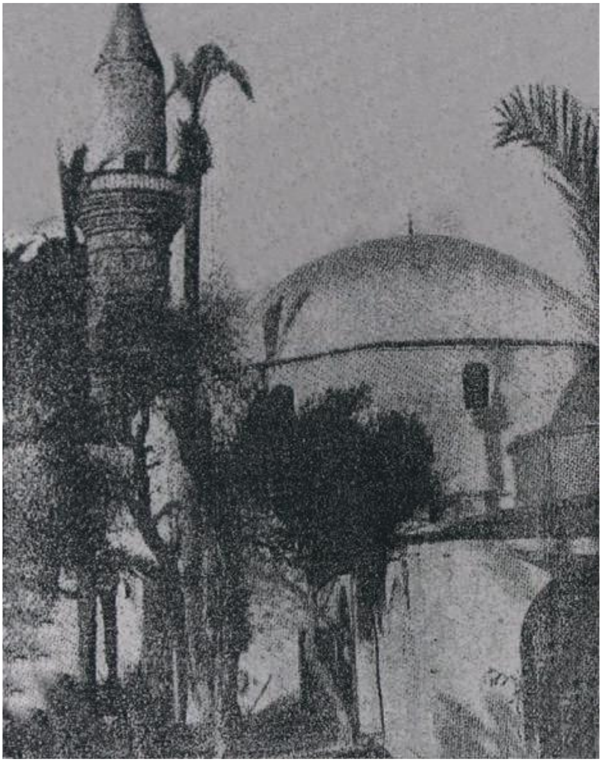

مسجد أم حرام وتربتها بقرب لارنكا.

بين المصريين والترك والإنكليز

وتقلبت الجزيرة بين أيدي أهل جنوى والمصريين حتى سنة ١٤٢٥ للميلاد، وأخيرًا أخضعها الأتراك أيام السلطان سليم الثاني سنة ١٥٧٠.

وبقيت في حوزتهم حتى تنازل عنها السلطان عبد الحميد الثاني إلى الإنكليز سنة ١٨٧٨.

واتخذ شاكسبير من قبرص مادة لمسرحيته «أوتلو» التي ترجمناها باسم عطيل، ولا يزال هناك حصن باسم «أوتلو»، وهو الذي أمات فيه شاكسبير «ديدموندە» التي يعرفها رواد المسارح وقُرَّاء الدرامات.

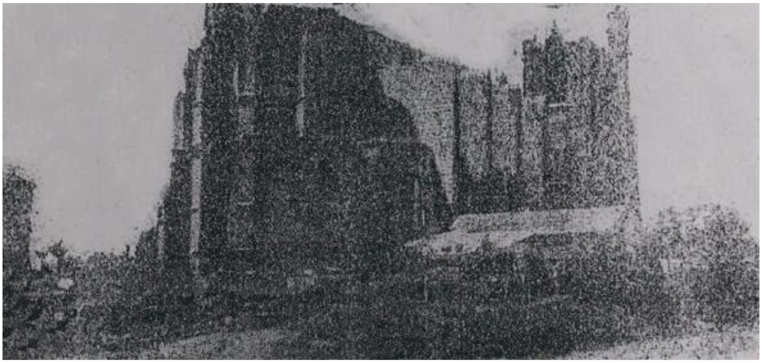

من آثار قبرص: دير القديس نيقولا في فاماجوستا.

قبرص مشتى ومصيف

وتعد قبرص من المصايف والمشاتي المعروفة بما فيها من جبال وغِياض ورِياض وأزهار وقرى صغيرة يسكنها المزارعون.

ويقول المؤرخون المعجبون بمناخ قبرص ومناظرها الطبيعية الخلابة إن أنطونيوس عرض على كليوباترة أن تجعلها مقرًّا تنعم فيه بغرامها.

وفي الشتاء يقصد كثير من الإنكليز وأهل البلاد الشمالية مدينة كيرنيا الواقعة شمال الجزيرة؛ لجفافها وجمال مناظرها وما تحويه أرباضها من الآثار، وأهمها دير البل بيز البيزنطي، وقصور هيراليون وبونافينتو، ثم الطريق المعبَّدة الموصِّلة إلى نيقوسيا (عاصمة الجزيرة)، وهي تشبه سواحل سورانتو وأمالفي في نابولي.

ونيقوسيا مركز الحركة التجارية والإدارية والاجتماعية، وقد تقدمت في الأيام الأخيرة تقدُّمًا يذكر، ولا سيما بعد ارتباطها بعواصم أوروبا ومصر بالخطوط الجوية.

المدن المهمة في قبرص

ويليها في الأهمية مدينة فاماجوستا، الميناء الأول في الجزيرة، ولا تزال حافظةً مظهرها الشرقي وصبغتها التركية. وكثير من أهلها المسلمين يتكلمون العربية والتركية. وفيها

كثير من آثار العصور الوسطى ممثَّلة في الأديرة والكنائس والجوامع وقصور الحكام والأشراف، وقد شيد بعضهم عمارات في المدينة على الطراز العصري، وبنوا فيلات في الضواحي.

وعلى مسافة من فاماجوستا توجد مدينة سلاميس التي اشتهرت بعمرانها أيام الفنيقيين والرومان والبيزنطيين.

في جبال ترودس: الزحلقة على الثلوج.

وفي قبرص مصايف جبلية عدة أشهرها ترودس على ارتفاع ٥٧٥٠ قدمًا، وبلاتراس على ارتفاع ٣٧٠٠ قدم، وبردرونو على ارتفاع ٤٦٣٣ قدمًا، وبيدولا على ارتفاع ٣٦٠٠ قدم.

وقد عُنِي أخيرًا السير رونالد ستروس (المعروف في مصر منذ كان في الوكالة البريطانية)، بوضع كتاب عن قبرص بالاشتراك مع المستر أوبرين، ونشر المستر روبرت جينوس سِفرًا قيِّمًا في تاريخ قبرص، حوى خير ما يقال عن فنون الجزيرة وآثارها.

ويعاني الإنكليز كثيرًا في إصلاح قبرص وتحسين حالة الزراعة والصناعة فيها وتمدين الأهالي.

المصريون والإنكليز في مصايف قبرص

وقد نشطت الدعاية للمَصِيف في جبالها قبل الحرب وازدادتْ بعدها، ولكنها لم تلاقِ في مصر ما كان يُنتظر من إقبال المصريين عليها، مع هدوء مصايفها وطيب مُنَاخها؛ لأن معظم من يصطافون فيها من الإنكليز.

ولذلك لا يجد المصطافون المصريون في قبرص من يعاشرونه أو يسامرونه؛ لانفراد أولاد العم جون بون بأنفسهم منصرفين إلى البولو والتنس والبريدج ووسكي بوكنان وشاي لبتون وإنجيل لوقا.

والشرق شرق والغرب غرب، لا يتلاقيان.

والله أعلم متى يزول هذا الرأي، ويمتزج الشرق بالغرب بالرغم من تلك النعرات الوطنية والدعايات القومية العاملة لتنفير بني آدم وحواء بعضهم من بعض.

الفصل التاسع

أيام في أثينا (١)

قضيت في أثينا عشرة أيام تامة.

نزلت إليها صباح يوم السبت ٣٠ يوليو، وبرحتها مساء يوم الاثنين ١٨ أغسطس.

زيارات سابقة

وكنت قد مررت بها قبل ذلك أكثر من مرة في صيف سنة ١٩٣٢ مع ركب جمعية الشبان المسيحية بقيادة المقدم أتول في الرحلة الإكسبرس إلى إستانبول.

ونظم لنا المقدم الأمريكي جولة في مدينة الأكروبول لمدة ثماني ساعات أرانا فيها بعض المتاحف والأنصاب.

وفي العودة تركنا أحرارًا، فرأى كل منَّا ما أراد من مشاهد، وفي السنة التالية زرتُها كذلك في ذهابي إلى إستانبول، وفي مقابلتي لجماعة الشبان المسيحية للسفر إلى يوجوسلافيا.

وفي هذه المرة قضيت في لوتراكي ساعات، ثم زرتها لمدة يومين في صيف سنة ١٩٣٦؛ فلست إذن غريبًا عن بلد زيوس وديانا.

ما رأيت وما سمعت

وكنت في زيارتي الحاضرة موفَّقًا لمشاهدة ما رغبت، وحضور الاحتفال بالعيد الوطني ومواكبه.

وقضيت أيامي مطربَشًا، وكان للطربوش المحترم عمله في تسهيل كثير من المهامِّ، والترحيب بي ومخاطبتي بالعربية في كل مكان.

ووجدت «الأهرام» تُباع في أكشاك الصحف والمجلات على بعد خطوات من الفندق. فتأتي الأعداد يوميًّا أو مرة كل يومين، وتباع بسعر ستة دراخمات ونصف (أي ١٢ مليمًا) النسخة. فقرأت منها بالتوالي الأعداد الصادرة من ٢٦ يوليو إلى ٣ أغسطس.

وكان يشاركني في ذلك مَن قابلتهم من أبناء الوطن العزيز.

وعرفت كيف أصرفهم بالتي هي أحسن عن المناقشة في حكاية الثكنات ومفاوضات رئيس الوزارة المصرية للإنكليز.

ولاحظت تغييرًا يُذكر في نظافة الشوارع، وكثرة عدد رجال البوليس الذين يعرفون اللغتين الإنجليزية والفرنسوية، وظهور أتوبيسات جديدة، صفراء فاقع لونها، واسعة مريحة أنيقة ذات درجة واحدة، تضرب ثورنيكروفت مصر على عينه.

ولكن القهوات لا تزال على حالها؛ كراسي القش، وكنكة القهوة الصفيح، والفنجان الصغير.

ولاحظت غلاءً وارتفاعًا في أسعار كل شيء عمَّا كانت عليه سنة ١٩٣٦.

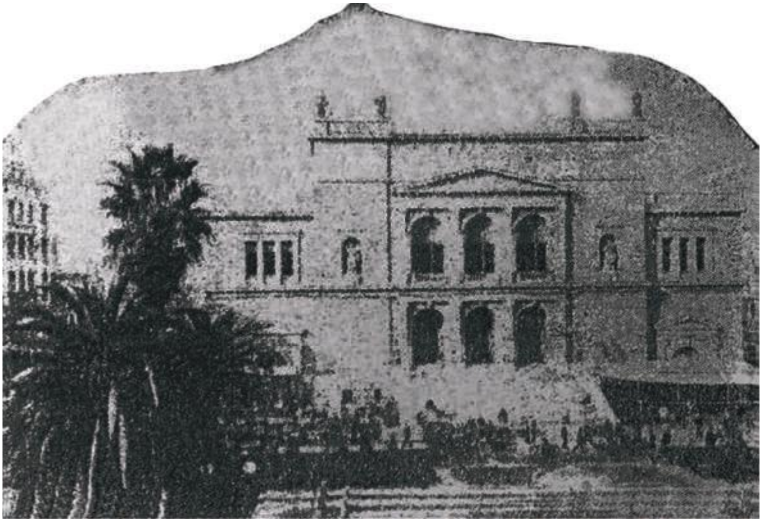

التياترو الوطني في أثينا.

وما أبدع الجلسات في ميدان سندغماتوس (الدستور)، وهو منشية أثينا، تتصدره عمارة مجلس النواب، والتياترو الوطني، وقبر الجندي المجهول، وتصدح فيه الموسيقى ليلًا، وتغص الأندية بالأجانب والوطنيين لتناول المثلجات والأوزو.

وحدِّث ولا حرج عن وفرة عدد المصريين الذين يتوافدون إلى بلاد اليونان للمصيف أو الاستحمام أو الاستجمام، بفضل الدعاية الشفوية اللسانية التي يقوم بها أصدقاؤنا التجار اليونان وجرسونات القهوات في مصر والإسكندرية وبقية البلاد المصرية الداخلية، وقرب المسافة وتعدُّد المراكب التي تبرح الإسكندرية وبورسعيد كل يوم إلى بيريه رأسًا، أو مرورًا بالجزر الصغيرة.

النزول إلى بيريه

ولم أدر في أية ساعة من ليلة السبت ٣٠ يوليو وصلت الباخرة تراكي إلى بيريه.

فقد نمت عند منتصف الليل، وفي الصباح الباكر أيقظني الخادم منبهًا إلى حضور الطبيب.

والزيارة الطبية خفيفة لطيفة لم تتجاوز نظرة فابتسامة، ثم تَسلُّم الباسبورت، فوقفة طويلة وسط زحام شديد بين يدي عمال الجواز، والتعريف عمَّا يحمل كل راكب من ورق نقد وفضة وشيكات، وتقييدها تفصيلًا على صفحات الباسبورت.

ولم نجد عناءً في إنزال الحقائب وتمريرها بالجمرك والكشف عن دخائل الحاجة شنطة، ثم تسليمها لمن حفظها لنا.

وكانت اللحية المحترمة قد طالت، فأسرعت إلى حلاق أزالها بمهارته.

وجلست مع السيدتين نازلي وزينب والأستاذ ديامنتس المحامي بالمحاكم المختلطة في إحدى قهوات بيريه. وكتب كلٌّ منَّا رسائله إلى الأصدقاء والأقرباء على تذاكر بوستة محلاة بصور الميناء اليوناني وأرصفته ودكاكين باعته.

من بيريه إلى أثينا

ثم أقلتنا سيارة إلى أثينا مجتازين شوارع بيريه الكبيرة وأرباضها وضواحيها وقُراها ذات الفيلات الزاهرة ودساكرها، حتى دخلنا إلى المدينة وودعنا الأستاذ ديامنتس شاكرين.

في مكتب الدعاية والصحافة

ونزلنا في شارع فيليلون إلى مكتب الصحافة والدعاية، وقدمت إلى المسيو الحاج مانولي، مدير المكتب رسالة توصية من صديق له في القاهرة. فتقبلها شاكرًا مرحبًا بالسيدتين والصحافي العجوز. وأوصى بنا المسيو ساختورس أحد موظفي المكتب، فأرشدنا إلى فندق كسيناس ماليترون، وقال إنه مستعد لإجابتنا إلى كل ما نطلب من تعريف إلى مزارات أو بيانات في أي شأن.

اليوم الأول في المدينة

وفندق «ماليترون» فندق متوسط بديع أنيق الرياش، طيب الطعام، واقع بين المفوضية المصرية وميدان الدستور وملتقى خطوط الترام والأتوبيس، وما هنالك من فنادق كبرى ومكاتب للسياحة ومكتبة الكتب الأجنبية، وأكشاك الصحف والمجلات، والتذاكر المصورة وغيرها.

وتغدينا في الفندق واستحضرنا الحقائب من بيريه ومعها الحاجة شنطة.

وكان لا بد من القيلولة، ولم أستيقظ إلا عند غروب الشمس، وسألت عن السيدتين فلم أجدْهما، فتجولت في شارع الأستاذ وميدان الدستور، وقضيت فيه سهرتي.

ساعات في زابيون

وكان اليوم التالي يوم الأحد (٢١ يوليو)، فأيقظتنا أجراس الكنائس، وخرجت مع السيدتين إلى حدائق زابيون، وزرنا المعرض الصناعي، وهو أشبه بمعارض الغرف التجارية المصرية، ولكنه يمتاز عليها بعمارته الواسعة المشيدة على الطراز اليوناني وتعدُّد غرفه، وقد أعدت فيها سينما في الهواء الطلق.

وكنت قد زرت هذا المعرض أكثر من مرة، فلاحظت في هذه الزيارة الأخيرة أنه قد أُنقِصت فيه معروضات الصنائع القديمة من نسيح ومنجور وقيشاني وورق وكتب ومطبوعات فنية، ومنها القرآن الكريم مترجَمًا إلى اليونانية، وزادت معروضات الأقمشة والمجهزات الكيماوية ولوحات مصورة لحال الفلاح اليوناني الحديث.

وإلى جانب المعرض قهوة متوسطة تُقدَّم فيها المثلجات والأوزو، فبرتفنا فيها على أنغام جوقة موسيقية لا بأس بها.

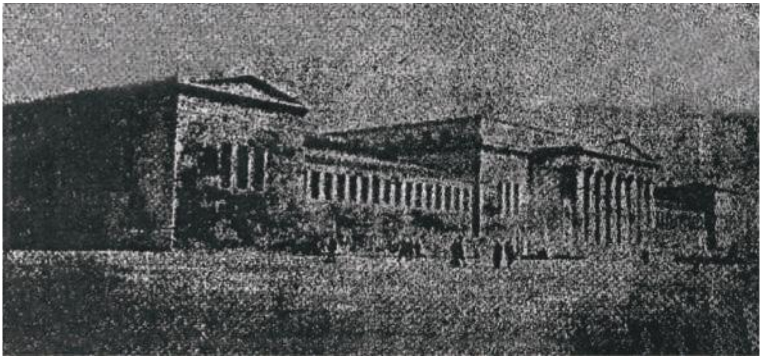

المعرض الصناعي في رياض زابيون.

واشتريتُ عددي الأهرام الصادرين بتاريخ ٢٦ و٢٧ يوليو، فقرأت في أولهما نعي نسيب هو أقرب الناس إليَّ وأعزهم عليَّ، فكان للخبر وقعه على نفسي، فلم أقوَ على قراءة الصحيفة، ولم أتناول غداء، ولم يزر النوم جفني بعد الظهر.

سهرة على شاطئ البحر

ولكني كتمت ما في نفسي وصحبت السيدتين مساء إلى فاليرون القديمة، وهي إحدى بلاجات أثينا ومصايفها المعدودة الممتدة على شاطئ مضرَّس مسنَّن متعرج، انتشرت عليه الفنادق والكازينات والفيلات بين الجبال المخضلَّة والمياه الزمردية.

وفي جليفادا والفاليرون القديمة والفاليرون الحديثة وفاكيزا وغيرها على مسافة ٢٧ كيلومترًا، كل ما يشوق ويروق من مصايف هادئة وبلاجات صاخبة لكل منها أنصارها وزبائنها.

وقد عُنِيَتْ بها الحكومة وعاونها أصحاب الفنادق والبيوت المفروشة، وعرفوا كيف يجرون إليها المصطافين من يونانيين وأجانب.

وفي أحد كازينات فاليرون القديمة تناولنا العشاء وتعرفنا بيوناني متمصِّر وزوجته الإنكليزية. وقضينا معهم السهرة فحدثنا الرجل عن رحلاته ومغامراته التجارية في مصر

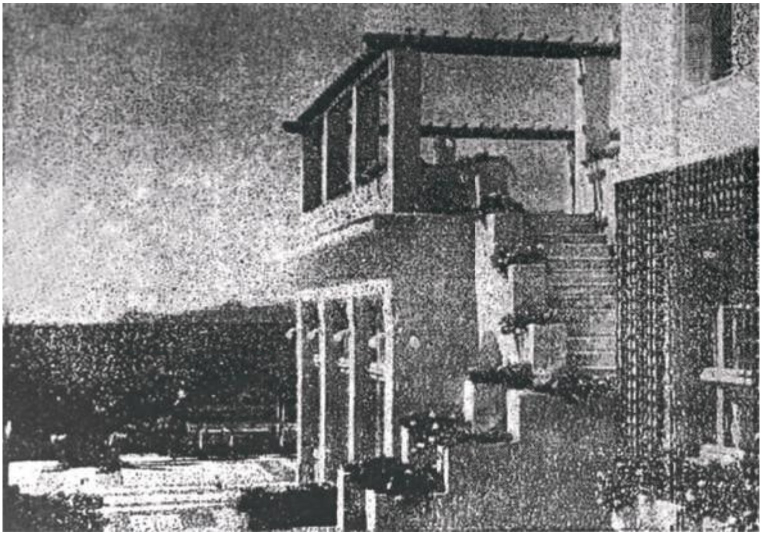

فندق كارلتون في الفاليرون.

وإنكلترا وأمريكا، وزواجه بهذه الإنكليزية من أهالي ليفربول، وعنها أخذت السيدتان نازلي وزينب الكثير من المعلومات عن الحياة الاجتماعية عامة، والمرأة اليونانية خاصة.

ودَّعناهما عند منتصف الليل عائدين في الأتوبيس الأصفر الفخم إلى فندقنا في أثينا.

الفصل العاشر

أيام في أثينا (٢)

الاثنين أول أغسطس.

بدأنا طوافنا الهادئ بزيارة المفوضية والقنصلية المصرية في شارع فاساليدس صوفيا العظيم، المجاور لفندق ماليترون، حيث القهوات والبارات الكبرى المزدحمة بالمصريين.

في المفوضية والقنصلية المصريتين

وفي مكاتب المفوضية استقبلنا محمد حسن أفندي حاجب الوزير المفوض بوجهه الأسمر الصبوح وابتسامته الهادئة.

وسألت عن سعادة الوزير علي سري عمر بك، فعلمت أنه غائب في بلغراد.

وقابلنا الأصدقاء من موظفي المفوضية والقنصلية، وهم الأستاذ علي فهمي العمروسي (نجل أستاذنا الجليل أحمد فهمي العمروسي بك) ملحق المفوضية، والأستاذ عبد الحميد منير سكرتير المفوضية، والأستاذ محمد يس مأمور القنصلية، والأستاذ أنور نيازي أمين محفوظات القنصلية.

وقضينا مع الإخوان، الذين يرفعون رأس مصر عاليًا بأدبهم وعلمهم، نحو ساعة متنقلين من مكتب إلى آخر، وفي كل مكتب القهوة المصرية مصنوعة بأيدٍ مصرية، ومقدَّمة بأيدٍ مصرية كذلك.

ومن دارنا المصرية إلى مكتب السياحة لمقابلة المسيو ساختورس.

في دار الأستاذ أورانيس

ثم قصدنا دار الصديق المسيو كوستا أورانيس الصحافي اليوناني المعروف بعد أن سألت عنه بالتليفون، فاستقبلنا في غرفة المكتب، واعتذر للسيدتين لمقابلتهما وهو في الروب دشمبر (ويسميه الأرحبيون المبذلة)، وأراد الخروج لارتداء ملابسه فأثنته السيدتان عن قصده، وبعد تناول القهوة لاحظنا أنه مشغول بالكتابة، فانصرفنا بعد أن اتفقنا معه على موعد آخر.

نهار في لوتراكي

وقررنا أن نزور في اليوم التالي حمامات لوتراكي.

وقال مدير الفندق إنه لا بد من حجز المقاعد في الأتوبيس مقدَّمًا من مكتب في المدينة، فقصدته وابتعت التذاكر.

وبكرنا صباحًا فركبنا تكسًا أقلَّنا إلى المكتب وأفطرنا في قهوة أمامه، ثم احتللنا مقاعدنا في الأتوبيس فسار في موعده المعين وهو الساعة السابعة والنصف، واجتاز شوارع المدينة ثم خرج إلى الضواحي فالمزارع والسهول.

والطريق واسعة مرصوفة كلها بالأسفلت معبَّدة، لا مطبات فيها ولا مرتفعات ولا منخفضات.

ومررنا بعدة مدن وقرًى صغيرة وكبيرة، وأهمها مدينتا كلاماكي وميجرا، وسِرْنا إلى جانب قناة كورنث الشهيرة التي تجتازها السفن الكبرى من بلاد اليونان إلى بحر الأدرياتيك.

وهكذا قطعنا ٨٥ كيلومترًا في ساعتين ودقائق بين سهل وجبل، حتى أشرفنا على مدينة الحمامات، وقد زرعت على جانبي الشارع أشجار الورد.

مقابلة بطريرك اليونان السكندري

وكنت قد ذكرت للسيدتين أن غبطة الأنبا يؤانس مقيم في لوتراكي مستشفيًا، فرغبتا في التبرك بزيارته ونيل مسبحتين أو أكثر من يده.

وسألنا عنه في لوتراكي ساعة وصولنا، فقيل لنا إنه في فندق أدلفي، فذهبنا إليه، وقدمت الكارت، فنزل إلينا شاب يوناني وحيانا بالعربية وقال إنه سكرتير غبطته.

قلت له: وأين عبد المسيح أفندي؟

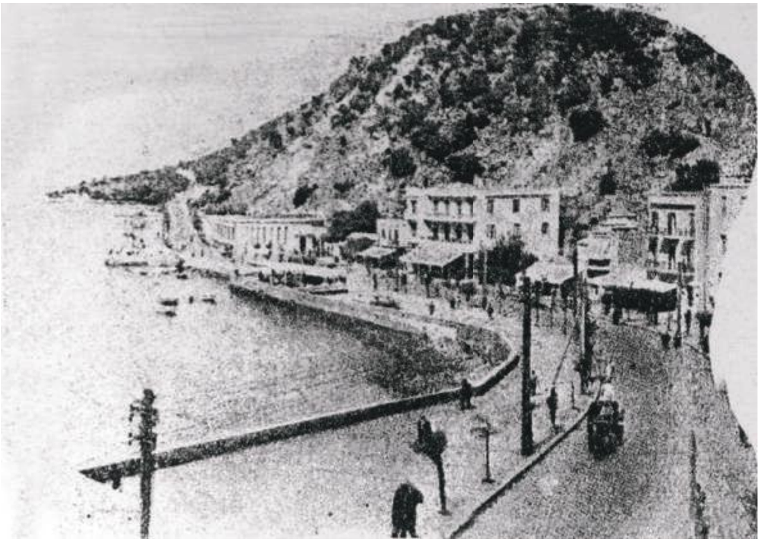

مدخل مدينة حمامات لوتراكي.

قال: وأي عبد المسيح؟

قلت: تلميذ أبونا يؤانس!

قال: إن غبطته قد سافر منذ أيام، والبطريرك المقيم هنا هو السيد نيقولاوس بطريرك الإسكندرية اليوناني.

قلت: إذن فلنتشرف بمقابلته. وصعدنا إليه، فاستقبلنا مرحِّبًا، وحدثنا بالعربية والفرنسوية والإنكليزية عن كنيسة مصر وانفصال كنائس البلقان عن بطريركية إستانبول، ومدارس اللاهوت العالية والمتوسطة في بلاد اليونان.

جولة في مدينة الحمامات

وانصرفنا من حضرته إلى الفرجة على الحمامات وينابيعها، والفنادق، والبانسيونات، والمطاعم المختلفة.

وسألت عن الكازينو ومناضد الروليت فيه، فقالوا إنها قد عطلت ومنع لعبها بقرار وزاري، بعد أن خربت بيوتًا وأضاعت ثروات.

وذكروا لنا أن هناك فندقًا واحدًا يقدم لزبائنه الطعام، أما البقية فقاصرة على النوم والفطور، ويتناول النزلاء الغداء والعشاء في المطاعم، ومنها المستقل والتابع للفندق.

وأكدوا أن المصاريف ونفقات الحياة في لوتراكي أقل كثيرًا مما هي في أثينا.

ومعظم تجار لوتراكي وخدم الفنادق والأندية والشوفيرات يتكلمون العربية، ويقولون لك: إن مصر بلدنا، ولوتراكي بلد المصريين.

وقضينا نهارنا على أحسن حال من أكل وشرب وتكريم وترحيب أينما سرنا وحللنا.

اليونان بلاد الحمامات

وحمامات «لوتراكي» من حمامات المياه المعدنية الساخنة المعروفة في بلاد اليونان، وهي أديبسوس، وهيباتي، وميثانا، واسموكوفو، وكايافا، ويلاتيستيمون، وغيرها.

وقد اشتهرت مياه لوتراكي المعدنية من القِدَم بمفعولها الشافي، وذكرها بالخير المؤلفان بافسانياس واكسينوفون.

وتمتاز هذه المياه على مياه إفيان وفيتل ومارتيني وإيمس بالشفاء من داء المفاصل والروماتزم والنقطة والحصوة وضعف الكلى وأمراضها والمجاري البولية وعسر الهضم وغيرها والبول السكري ومضاعفاته.

ويشرف على الحمامات طبيبان منتدبان من لدن الحكومة للكشف المجاني الإجباري على المستشفين، ووصف ما ينبغي لهم من دواء، سواء بالاستحمام أو شرب مقادير معينة من المياه أو العلاج بالكهرباء وحمامات النور والتدليك.

وتوزع في المدن المصرية كراسة باللغة العربية تحتوي على وصف دقيق لكل حمام وعين معدنية للتشويق.

وكان ليوم لوتراكي أثره فِينَا، فلم نخرج من الفندق في اليوم التالي إلا ضحى.

وذهبت السيدتان إلى مكتب كوك لتجهيز تذاكر السفر إلى النمسا وألمانيا عن طريق بلغراد.

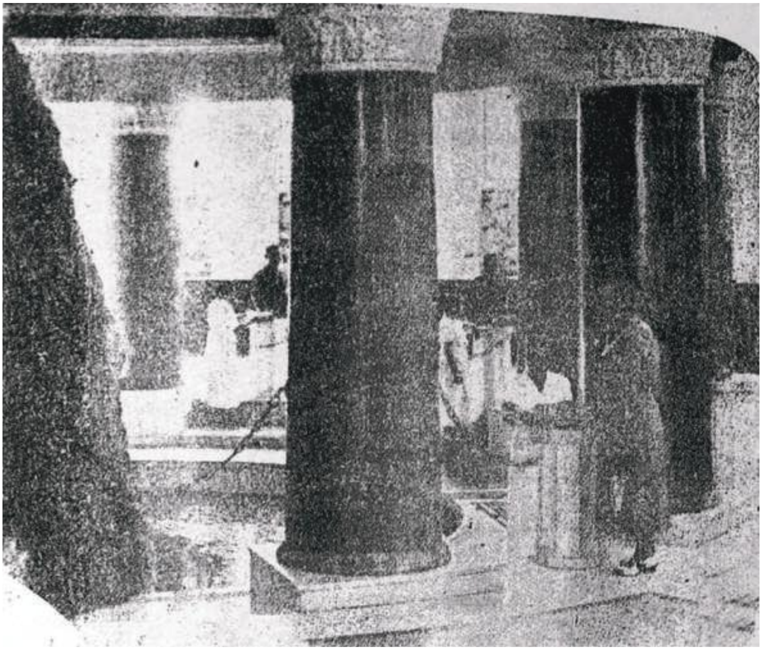

مشرب مياه معدنية في لوتراكي.

وقصدت إلى ميدان الكونكرد لمطالعة الصحف واستعراض حركة المرور.

جلسة أدبية علمية

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر قصدنا دار المسيو كوستا أورانيس، فاستقبلَنا في غرفة مكتب السيدة زوجته، وهو لا يختلف عن مكتبه في الرِّيَاش الثمين وترتيب الكتب وتنضيدها.

ثم حضرت السيدة ووالدتها مدام نجربوسي.

وقد أتت الوالدة خصيصًا لمقابلة السيدتين المصريتين وتعريفهما بحالة التربية والتعليم، ونهضة المرأة، والإصلاح الاجتماعي في بلاد اليونان.

وجرى الكلام في هذه المواضيع وفي غيرها أثناء تناول القهوة والحلوى.

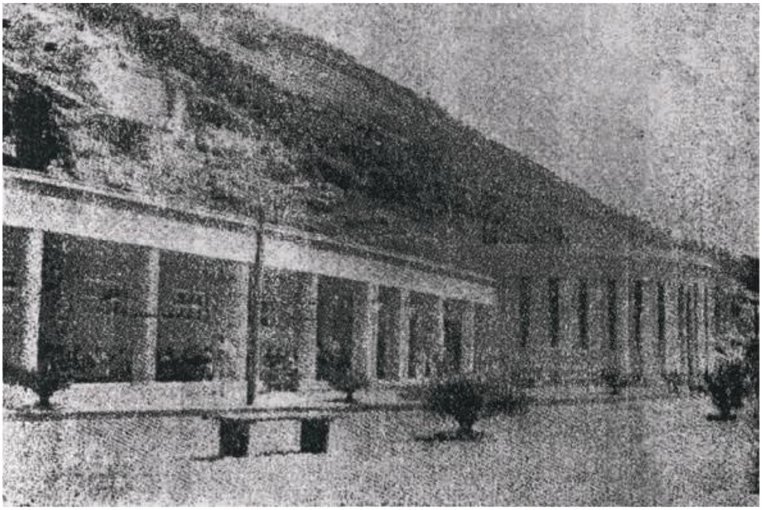

قسم من حمامات لوتراكي.

وفي هذه الجلسة عرفت عن مدام أورانيس ما لم أعرفه في مجالستي لها في السنوات الماضية.

فقد ذكر لي المسيو أورانيس أنها من كبار المنشئات المعروفات، ولها مقالات قيِّمة ومباحث دقيقة في الأدب والنقد المرسحي تنشرها في أهم المجلات والصحف وأخصها مجلة «نيا استيا» بتوقيع «أليكس ثرليوس»، ولها كذلك رسائل شائقة في موضوع الأغاني اليونانية، وتراجم بعض كبار الأدباء.

وودعنا هذه العائلة الكريمة سائلين أن نراها في ظلال الأهرام وأبي الهول، فقالت السيدتان: ولكن النفقات في بلادكم لا يقدر عليها إلا الأغنياء، وإلى جانب ذلك ما هنالك من عشرات تقيمها قنصليتكم في أثينا وعقبات لكل من أراد السفر إلى مصر، ولو كان يقصد الزيارة لشهر أو أقل.

الفصل الحادي عشر

أيام في أثينا (٣)

لاحظنا منذ يوم الاثنين (أول أغسطس) حركة في المدينة غير مألوفة؛ التجار يرفعون الأعلام على واجهات مخازنهم، والشوارع تزخر بالألوف من «الشباب الوطني»، وهم صنف من التشكيلات الحديثة لم أعرف حدود عمله، يسيرون جماعات تتقدمهم الطبول والأعلام.

ثم أشكال وألوان من أهالي القرى والمقاطعات الداخلية في أزيائهم الوطنية من رجال ونساء، وطوائف من الكشافات بين صبيان وبنات.

وعمال يزينون الشوارع بالأزهار ويلصقون على الجدران صورة الرئيس متكساس، ورسم شعلة كتب تحتها «زيتو متكساس»، وأخرى عليها صورة رمزية كتب تحتها: «٤ أغسطس سنة ١٩٣٦–٤ أغسطس سنة ١٩٣٨»، وغيرها عليها صورة جنود بالزي الحديث والزي القديم كتب تحتها «سنة ١٨٣٨–١٩٣٨».

حركة القائد ماتكساس

فسألت عن سر هذه الحركة.

فقيل لي: هي حركة الاحتفال بالعيد الوطني.

قلت: زيدوني من فضلكم.

قالوا: عيد الإنقاذ.

قلت: لا بد من إيضاح وتفصيل.

قالوا: في ١٩٣٦ عمت الفوضى البلاد كلها وساءت حالة الحكومة بتطاحن الأحزاب، وأشرفنا على خراب مالي وحرب أهلية مثل الحرب الحاضرة في إسبانيا.

وهنا نهض القائد الوطني المقدام جان متكساس وحضر إلى أثينا (يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٣٦) على رأس قوة من الجيش، وطلب من جلالة الملك أن يعاونه على إنقاذ

الموقف بوقف الحياة الدستورية والاكتفاء بمجلس وزراء، فنزل الملك على إرادة القائد وولاه رياسة الوزارة.

وشرع الرئيس ماتكساس في تطهير الحكومة من أقذار الماضي وانتشال البلاد من هُوَّة الدمار، فكان له ما أراد.

ماذا فعل ماتكساس؟

وقد طبعت كراسة باللغة الفرنسوية تضمنت بيان أعمال الحكومة الجديدة في السنتين، حصلت على نسخة منها، وقرأت خلاصة لها في صحيفة «المساجيه داتين» ذكرت هذه الأعمال وآثارها في الدفاع الوطني، وموقف اليونان الدولي وحماية النقد والمالية العامة والنظام الإداري والأشغال العامة، وترقية الزراعة والصناعة والتجارة والنقل البحري، وتنشيط حركة السياحة وحماية العمال والقضاء والإصلاح الاجتماعي والتربية الوطنية والآداب والفنون.

وسألت: هل الكل راضون عن الحالة الحاضرة؟

الرئيس جان ماتكساس.

فعلمت أن هناك معارضين وإلى جانبهم جماعات من المحايدين والحذرين الذين لا يقوون على الإباحة بما يُكِنُّونه من عداء للحكومة التي غلَّت أيديهم، وحالت دون انتفاعهم من الفوضى القديمة.

لجنة الاحتفال بعيد الإنقاذ

قالوا: وقد تألفت لجنة وطنية للاحتفال بمرور سنتين على هذه الإصلاحات، ودعي إليها نحو ١٠٠ ألف من أهالي الداخلية للاشتراك في العيد الوطني وهم بملابس الكشافة والشباب الوطني والأزياء الوطنية الأهلية القديمة، وقد دفعت لهم الحكومة أجور السفر بسكك الحديد والأتوبيسات والسفن من بلادهم والعودة إليها وأنزلتهم ضيوفًا عليها أثناء إقامتهم بالعاصمة. وستكون الحفلة الكبرى في «الاستاد» يوم الخميس ٤ أغسطس وحضورها بتذاكر خاصة، وتسبقها حفلة تجريبية يوم الأربعاء.

مظاهر المدنية في العيد

وكانت فرصة بلا موعد أو انتظار، وزينة شعبية لم نكن نتوقعها أو نحسب لها حسابًا.

فقد بدت الشوارع الرئيسية كلها وفي مقدمتها شارع الاستاد وشارع الجامعة وميادين الدستور والكونكرد وأومونيا تختال في أبهى حلة من عقود الأنوار بين أزرق وأبيض، والأعلام الخافقة في كل مكان، وإطارات الزهر معلقة على النوافذ والشرفات ومالئة فترينات المخازن.

وأمام كل مطعم وكل فندق عشرات الموائد مبسوطة لأولئك المدعوين من أهل الريف اليوناني، يقدم إليهم عليها الطعام الشهي وخمر الأتيك الصافي العتيق، ثم يذهبون إلى حفلات ساهرة خاصة يقيمها هذا وذاك لأبناء بلده.

ما هو استاد أتيكوس العظيم؟

و«الاستاد» الذي تقام فيه الحفلة الكبرى، هو ذاك الملعب المدرج العظيم القديم، الذي دعا إلى إنشائه ليكورغس الخطيب السياسي اليوناني سنة ٣٣٠ قبل الميلاد؛ ليكون ميدانًا للألعاب الرياضية.

وقام بتشييده هيرود أتيكوس السري في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٤٠ للميلاد، وقدر اليونان عمل أتيكوس، فدفنوه في أرض الملعب.

وظل الاستاد ميدانًا للألعاب الأولمبية إلى أن أبطلها الإمبراطور تيودوسيوس الثاني سنة ٣٩٥ للميلاد.

ثم استولى الأتراك على بلاد اليونان فحولوا الملعب إلى «جيارة»، وأخذوا يحطمون مقاعده المشيدة من رخام بنتالي إلى جير.

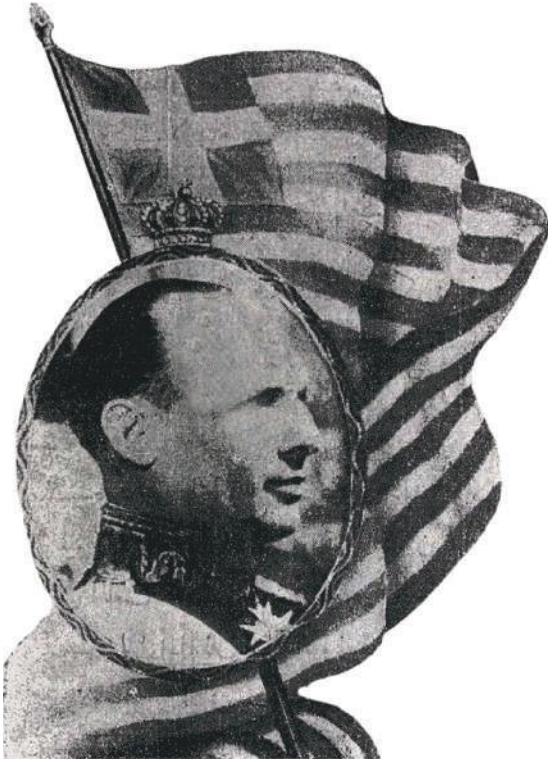

جلالة جورج الثاني ملك اليونان.

ومرت القرون الطويلة، وعلت الأتربة مقاعد الاستاد وردمتها، حتى تخلصت اليونان من حكم الترك، وكانت سنة ١٨٥٠، فعهد الملك جورج الأول إلى المهندس الألماني جورج زيللر بالكشف عن الاستاد، فقام بالمهمة على أحسن حال.

وهنا تجلت نخوة المسيو جورج أفيروف التاجر اليوناني السَّرِي المعروف في مصر، فصرف عشرات الألوف من الجنيهات على إعادة الاستاد إلى ما كان عليه بتجديد المقاعد من رخام بنتالي وتعبيد الأرض وإصلاح المداخل والمماشي.

وتم الإصلاح والتعمير من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٩٠٦.

وفي هذه السنة احتفل لأول مرة في الاستاد الجديد بالألعاب الأولمبية التي أصبحت عملًا دوليًّا يشترك فيه رياضيو العالم.

ويبلغ طول الملعب ٦٦٧ قدمًا، وعرضه ١١٠ أقدام، ومدرجاته ٦٠ درجة تَسَع ٦٠ ألف متفرج، وقد خصصت في صدرها مقاعد لولاة الأمر والسفراء، وأُقِيم على جانبيها تمثالان من الرخام لديونسيوس وهرمس، ونُصِب في المدخل تمثال للمرحوم جورج أفيروف.

الحفلة التجريبية في الاستاد

قالت الست نازلي: اسمع يا صحافي يا عجوز.

قلت: نعم يا ست هانم.

قالت: الأحسن أن نحضر الحفلة التجريبية، فهي دائمًا خير مثال للحفلة الرسمية، وصورة طبق الأصل لها.

قلت: الأمر أمرك.

وقصدنا الاستاد مساء يوم الأربعاء ٣ أغسطس، وانتفعنا بالطربوش المحترم، فلم يمانع الجنود في دخولنا.

وكانت الحفلة تحت رياسة محافظ أثينا خاصة بالشبيبة الوطنية.

واتصلت الست نازلي بمهندس تركي، والآنسة زينب بضابط يوناني، وأخرجت كل من السيدتين دفتر مذكراتهما (ويسميه الأرحبيون الكناشة)، وطفقتا تدونان ما يمليه عليهما الرجلان الخبيران عن الاستاد وهندسته وطوائف الراقصين وملابسهم.

وفي هذه الحفلة التجريبية شاهدنا المعجب المطرب من الرقص القديم على أنغام العود والصفارة وقرع الطبول.

وقضينا السهرة في ميدان الدستور، عارضين مواكب الشبيبة الوطنية والكشافات وفرق الرقص الوطنية، تسير جماعات بأعلامها وطبولها وزمورها.

في الحفلة الرسمية للعيد

وفي اليوم التالي تعرفت إلى الأستاذ محمد أمين صدقي بك، وكيل محكمة أسيوط، وكان نازلًا ونجله في فندق ميلاترون.

قال لي: لقد جلست معك قبل اليوم وكان واسطة التعارف صديقك وأستاذي المرحوم محمد السباعي، فترحمنا عليه وتحدثنا عن فضائله وأخلاقه وآثاره الأدبية التي نسيها الناس، ويفكر زميله وصديقه الأستاذ المازني في تسجيلها في كتاب يجمع سيرته ومقتطفات من نثره ونظمه.

راقصون في حفلات عيد الإنقاذ.

وبعد الغداء والقيلولة ركبنا تكسًا إلى الاستاد، وكان اللف والبرم والسير من شارع والمنع من المرور في آخر تبعًا لأوامر البوليس، حتى نزلنا في نقطة تبعد عن الملعب نحو نصف كيلومتر قطعناها راجلين.

وكان لكل منا تذكرة من نوع خاص، فافترقت عن الأستاذ صدقي بك ونجله الأديب.

وكان مقعدي في القسم الخاص برئيس الدولة وكبار رجال الحكومة والجيش ورؤساء الدين والسلك السياسي الأجنبي.

وبدأت الحفلة بظهور فرق من كشافة البنين والبنات واصطفافهم طوابير لتحية العلم.

وعقبتهم فرق من البنات بعضهن في ملابس زرقاء وبيضاء (وهما لون العلم اليوناني)، وقمن بحركات مختلفة بتقاذف الكرات وتحريك طارات خشبية.

ثم جاءت مواكب المزارعين والعمال، وكان كل فريق منهم يقف أمام مقعد الرئيس ماتكساس، ويقدمون إليه منتجاتهم من خبز وفاكهة ومقاني وغلال، فيتقبلها بيده شاكرًا.

نماذج من بنات الأقاليم الراقصات.

وعقبتهم جماعات الراقصين، فرقصت كل جماعة رقصها الفني في حلقة أمام الرئيس، ثم انتقلت إلى حلقة أخرى، ولم تنقض نصف ساعة حتى امتلأت الحلقات كلها بالراقصين والراقصات في ملابسهم الوطنية القديمة، وأعقبوا الرقص بمواكب طافت بأرجاء الميدان.

وختمت الحفلة بالنشيد الوطني.

وانقضت ليلة الجمعة، ونهار الجمعة بطوله والمدينة غاصَّة بمواكب الراقصين ووفود الأقاليم والشباب الوطني، يسير بعضهم راجلين والبعض في التراموايات وعربات اللوري المزدانة بالأعلام والزهور.

وظهرت الجرائد وفيها وصف الحفلة العامة وصورها وتفصيلات المآدب والحفلات وخطب رئيس الحكومة ورسالته إلى الأمة، وفيها يشكر الله والملك والشعب على تأييدهم له في إنقاذ الأمة، ويؤكد للجميع أنه باذل جهده في المحافظة على الحالة الحاضرة لسلام البلاد والعمل لرفاهها في الداخل وفي الخارج.

الفصل الثاني عشر

أيام في أثينا (٤)

ودعتُ السيدتين في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم السبت ٦ أغسطس.

وكنت على موعد مع الأستاذ العمروسي، فجاءني على سيارته الأنيقة يصحبه الطالب الأديب الشحات أيوب أفندي خريج كلية الآداب بالجامعة المصرية في قسم الآداب.

مصري يدرس أدب اليونان وتاريخهم

وقد تخصص أيوب أفندي لدراسة أدب اليونان وتاريخهم، وأُرسِل في بعثة إلى السوربون قضى فيها سبع سنوات، وجاء منذ أشهر إلى أثينا للدرس والبحث في المدرسة الفرنسوية للآثار اليونانية.

وقد أعد أطروحتين: الأولى عن مقاطعة اللايبوسي وتاريخها في القرن الرابع قبل الميلاد، والثانية عن تناجرا، وسيقدم الأطروحتين إلى السوربون في شهر أكتوبر القادم لنيل الدكتوراه.

من المدينة إلى الضواحي

وخرجنا في سيارة الأستاذ العمروسي، يقودها بمهارة وتؤدة، إلى الجامع التركي العتيق، وكان مُقْفَلًا، فاكتفينا بالطواف حوله والتطلُّع إلى قُبَّتِه، ودخلنا إلى السوق القديم ويقع في زقاق ضيق شبيه بخان الخليلي ولكنه أقل منه بضاعة، سواء من الملابس أو الحلي والأعلاق.

وانطلقنا من السوق إلى حدائق زابيون فزُرْنَا أطلال الألمبيون وهو المعبد العظيم الذي قضى اليونانيون في تشييده قرونًا طويلة وتم إنشاؤه وتدشينه في عهد الإمبراطور أدريانوس. وكان فيه ١٠٨ أعمدة من الطراز الكورنتي يبلغ ارتفاع كل منها ٦٢ قدمًا، لم يبقَ قائمًا منها إلا ١٦ عمودًا، ويقول المؤرخون المعاصرون إن الأتراك قد دمروا المعبد وأعمدته أثناء احتلالهم أثينا.

ولم يكن هناك وقت لسماع تفصيل شائق أراد أن يلقيه علينا الأستاذ أيوب عن هذه الأحجار، فاكتفينا بالنظرة السريعة، وانطلق بنا الأستاذ العمروسي إلى منتزهات خلاندريون وبنتالي مجتازًا شارع فاسليس صوفيا العظيم.

وكُنَّا أينما سرنا نرى القصور والفيلات وبيوت الشعب والأندية والقهوات والمستشفيات والمصحات، حتى بلغنا بنتالي، وفيها كنيسة زرناها وشربنا الماء الصافي من نبعها، ثم استرحنا في قهوة قريبة منها.

عشوة مصرية بحرية

ومن سفح الجبل إلى شاطئ البحر عند فاليرون القديمة، مارين بدار الأستاذ يس مأمور القنصلية، فصحبنا إلى قهوة كريونيري (المياه المثلجة) الواقعة على لسان في البحر.

وكانت جلسة مصرية ممتعة، وأكلة سمك طيبة، على أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب، وقد أدار صاحب القهوة أقراصها على الفنوغراف، وأعادني الأساتذة إلى الفندق في منتصف الليل على أن نتقابل ظهر يوم الاثنين التالي.

في متحف بناكي

وخصصت صبيحة يوم الأحد لزيارة متحف بناكي وآثار الأكروبول، وما يتصل بها.

و«متحف بناكي» منشأة حديثة عني بإقامتها المسيو بناكي التاجر اليوناني العظيم المعروف في مصر، وأودعها كل ما جمعه من التحف العظيمة في مصر، وساعده غيره من الأثرياء الذين لم تلههم البورصة والأقطان والتجارة عن المشاركة في الفنون الجميلة.

ويتألَّف متحف بناكي من دور تحت الأرض، ودورين علويين. ويشتمل على منتخبات قيمة من الفن البيزنطي فيها قطع كنسية من صور وملابس ومباخر وصلبان،

ومجموعة من الآثار الإسلامية منها قاعة ذات نافورة من الرخام الملون وصور وفضيات ومنجور وباب كامل من صناعة بغداد، ومجموعة من الأسلحة القديمة أكثرها يوناني، وحلي ومجوهرات يونانية ورومانية ومصرية وبيزنطية وعربية، وأوانٍ صينية ومنسوجات مختلفة، وأكبر مجموعة من الملابس اليونانية الأهلية، وقطع عديدة من النسيج القبطي، أفخر وأكثر مما لدى سعادة مرقس سميكة باشا في المتحف القبطي ... إلخ.

كأس بيزنطية في متحف بناكي.

وعند خروجي من المتحف، ودَّعني الحارس بالعربية وقال لي إنه كان من جارسونات بار الأوبلسك لصاحبه اسبيرو جاسبر ناتوس في وجه البركة، فتحدثنا عن الأزبكية وعصرها الزاهي القديم.

وأركبني تاكسًا أقلتني إلى قمة الأكروبول، الأثر الفني الخالد، الذي لا يصح أن يزور أحد أثينا ولا يحج إليه.

وإذا كان هذا الأكروبول لا يساوي معابد الأقصر وأسوان وغيرها من آثار مصر، فإن له في عالم الفن القديم مقامه.

كان قلعة وحصنًا، وكان قصرًا للملوك، وكان معبدًا للآلهة.

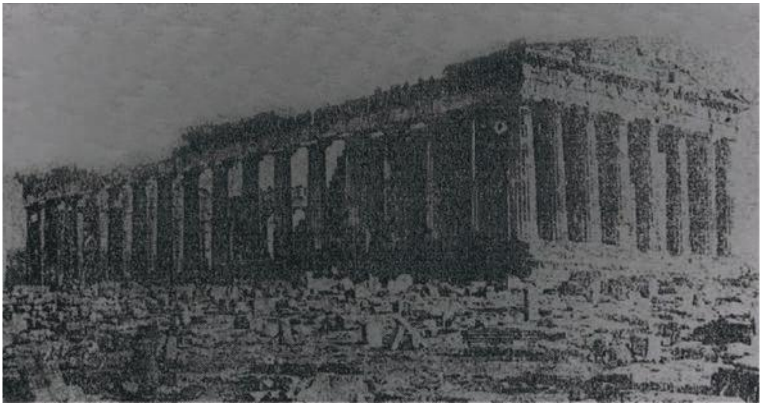

معبد الأكروبول الشهير.

وقد اشتغل بتشييده ونقشِه كبار المهندسين والحفَّارين وسادة المعمار القديم، وهدمه الفرس وحطموا جدرانه وأعمدته، ثم أصلحها اليونان. ولا تزال بقاياها دالَّة على العظمة والجبروت والفخامة والضخامة التي امتازت بها معابد اليونان القديمة.

وقد أنشئ إلى جانب الأكروبول متحف خاص به، رتبت فيه قطع مختلفة من التماثيل التي وجدت في الأكروبول، وخصصت قاعة للتماثيل النسائية.

ومن الأكروبول نزلت إلى أوديون أيتكوس وتياترو ديونيسوس.

الأوديون وتياترو ديونيسوس

والأوديون ملعب بناه السري هيرود أتيكوس ذكرى لزوجته أرجيلا، وأعده لحفلات الغناء والتمثيل الدرامي، ولا يزالون حتى اليوم يحيون فيه سهرات فنية.

وتياترو ديونيسوس، من أكبر المراسح اليونانية، كانت تمثل فيه روايات كبار المؤلفين اليونان أخيلوس وسوفكلس وأوربيدوس وأريستوفان، وتسع مدرجاته ١٥ ألفًا من النظارة. وقد أحدث الرومان فيه تغييرات عدة. ولا تزال المقاعد الخاصة بولاة الأمر حافظة شكلها، وفي أعلى المرسح مغارة حوِّلت إلى كنيسة باسم السيدة العذراء.

وعدت إلى الفندق متعبًا فتغديت، ولم أستيقظ إلا غروبًا، فذهبت لاستنشاق النسيم على ساحل البحر في الفالير الجديد.

تمثال سيدة في متحف الأكروبول.

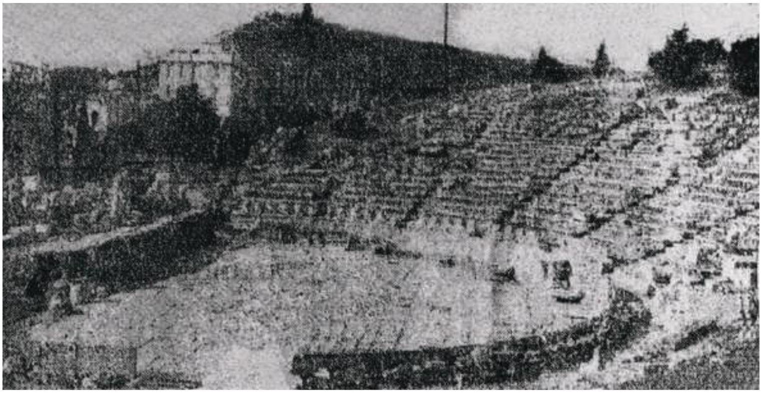

تياترو ديونيسوس العظيم.

الفصل الثالث عشر

أيام في أثينا (٥)

الاثنين ٨ أغسطس، يوم وداع أثينا.

المكتبة والجامعة والأكاديمية ودار الطلبة، متراصَّة بعضها إلى جانب البعض على مسافة قصيرة من الفندق.

وفي الساعات الباقية قبل السفر متسع لزيارة بعض هذه المؤسسات العلمية الأدبية التي أنفق سراة اليونان بسخاء على إنشائها وتعميرها.

جولة في مكتبة أثينا الأهلية

قابلت في المكتبة الآنسة كاوري، خريجة كلية الفلسفة بجامعة أثينا، وهي تجيد اللغتين الفرنسوية والألمانية، وتقوم بمثل أستاذنا الشيخ محمد عبد الرسول في دار الكتب المصرية.

وكان السؤال، وكان الجواب.

وكان مجمل ما استفدته من الآنسة الليبية أن مكتبة أثينا الأهلية أنشئت سنة ١٨٣٢ بمال إخوان فالانوس، ونقلت إلى محلها الحاضر سنة ١٩٠٣.

ويبلغ عدد ما فيها من الكتب الآن نصف مليون كتاب منها أربعة آلاف مخطوطة، وعدد الموظفين الفنيين ١٦ موظفًا، وهم طبعًا غير الخدم السايرة، ومنهم نساء يتولين الكنس والتنظيف.

وبأمر حكومي يجب على كل مؤلف أو ناشر أن يرسل من مطبوعاته نسختين إلى المكتبة الأهلية فتحفظ فيها نسخة، وترسل الأخرى إلى مكتبة الجامعة.

وهناك كتالوج أبجدي بأسماء المؤلفين وفهارس وفيش لأقسام العلوم والفنون، في حاجة إلى الترتيب والتوسيع، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة.

وتطبع المكتبة فهرستًا سنويًّا بأسماء المؤلفات الجديدة.

وقدمت إليَّ الآنسة النسخة الأخيرة من هذا الفهرست، ولا تزيد صفحاته على المائة والأربعين من الحجم المتوسط.

قلت: وهل عندكم دور أخرى للكتب؟

قالت الآنسة كلوري: نعم، عندنا مكتبة البرلمان وفيها نصف مليون مجلد ومكتبة الطلبة وفيها خمسون ألفًا، ولكل من كليات الطب والعلوم والآداب والفنون مكتبة، وتوجد كذلك مكتبات عظيمة في معاهد الآثار الألمانية والأمريكية والفرنسوية والإيطالية في أثينا، ولكن من الأسف أنه ليس عندنا مكتبات للشعب.

وصعدت بي من الدور الأرضي إلى الدور الأول، وقدمتني إلى الموظف الفني المكلف بتنسيق الكتالوج، وهو من خريجي كلية الحقوق.

وقدمني هذا بدوره إلى الأستاذ المسيو كوكينوس مدير المكتبة، وذكر لي أنه مؤلف أكبر تاريخ للثورة اليونانية في مجلدات عدة طُبِع منها ستة، وله كذلك قصص وروايات يعرفها المثقفون من الجالية اليونانية في مصر ويقرءونها.

وخرج بي من مكتب المدير إلى قاعة المطالعة والمراجعة ودهاليز المخازن، وأطلعني على بعض ما عندهم من كتب عربية أكثرها من مطبوعات أوروبا.

ساعة في أكاديمي أثينا

ومن المكتبة إلى أكاديمي أثينا.

وأثينا مبدعة الأكاديميات، ومعلمة العالم كيف يتأكدمون.

وأكاديمي أثينا الحاضرة أنشأها وصرف على تشييد عمارتها البارون سيمون أكسيناس، وبُنِيَتْ كلها من رخام بنتالي على مثال هيكل البارتنيون وزُيِّنَتْ جدرانها بصور تمثل آلهة الخير والفضل، ونصب في صدرها تمثال رخامي بالحجم الطبيعي للبارون أكسيناس.

وقابلني في الأكاديمي المسيو جورج نيقولا فيلتسوس مدير مكتب المجمع، والمسيو ماريو تيودراكي مساعده.

وذكرَا لي أن أعضاء الأكاديمي ستون عضوًا، ولكن عددهم الآن أربعون عضوًا، ورئيس الأكاديمي المسيو أنطوني كيراموبولس الأستاذ في الجامعة، والسكرتير العام المسيو جورج إيكونومس.

على باب الأكاديمي: الآنسة زينب الحكيم والصحافي العجوز.

ويتناول الأعضاء راتبًا شهريًّا من الحكومة، ويعملون متفرقين ومجتمعين لترقية العلوم والآداب والفنون.

ويحتوي الدور الأرضي للأكاديمي على أرشيف عام للحكومة، ومستندات ووثائق لتاريخ أدب اللغة والقضاء والعادات والأخلاق والعصر الحديث.

ويشتمل الدور الأول على قاعة الاجتماع والجلسات الكبرى، ومعرض للنقود وغرف للجان والسكرتارية وغيرها.

ذكرى محسنة مصرية

وفي غرفة السكرتير عُلِّقَتْ صورة زيتية كبرى للمسيو تسيفلوس الذي وهب ثروته كلها للأكاديمي، وصورة مدام أورانيس قسطنطنيدس التي قضت حياتها في مصر، ووضعت ثروتها بين يدي أعضاء الأكاديمي ليصرفوا من ريعها على بعثات من شبان اليونانيين المصورين والمثالين ليتخصصوا في فنهم خارج بلاد اليونان.

وفي هذه الغرفة خزانة كتب قَيِّمَة بين مخطوط ومطبوع قبل الثورة اليونانية، تركها للأكاديمي الدكتور إدامنتوس كواريس الطبيب اليوناني الذي عاش بباريس ومات فيها.

غدوة مصرية في دار مصرية

وعدت إلى فندق أكسيناس ميلاترون وأنزل الخدم الحاجة شنطة، وأرادوا إدخالها في خزانة العفش بسيارة الأستاذ العمروسي، فاحرنجمت وزمجرت وأبت إلا أن تحتل المحل الأرفع في السيارة.

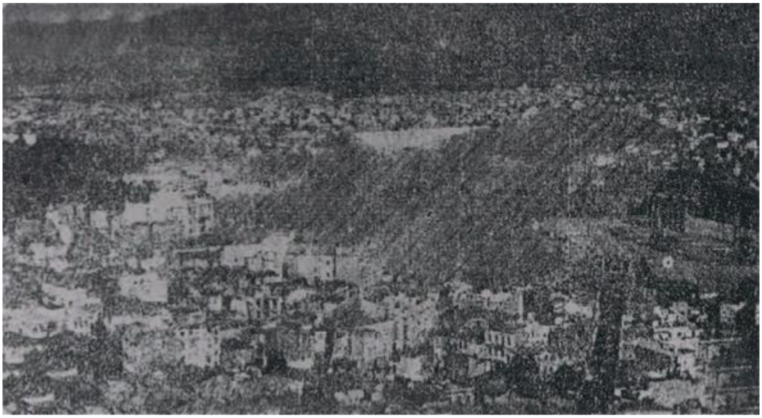

منظر عام لمدينة أثينا.

ودرجنا في شوارع أثينا مودِّعين آثارها وأعلامها وما فيها من مفاخر المحسنين، وخرجنا إلى شارع سنجاروس العظيم، حتى وصلنا إلى بيريه، فأنزلنا الحاجة شنطة في

القنصلية المصرية وأعطينا الباسبورت لرئيس الخدم وحملنا معنا الأستاذين محمد يس وأنور نيازي، وعدنا إلى فالير القديمة حيث يصطاف الأستاذ العمروسي.

وفي الدار استقبلتنا السيدة حرم الأستاذ الجليل أحمد فهمي العمروسي بك، والآنسة عايدة كريمتها، والسيدة سميرة حرم الأستاذ يس.

وكان مائدة مصرية، وأكلة مصرية بيد يونانية تحت إشراف السيدة المصرية، ولكن العيش الإفرنكي الفينو لم يفلح في الامتزاج بفتة الفراخ.

وبعد الغداء كان الحديث في الشئون المصرية المختلفة في الوسط المصري، وأدوار البيانو العربية عزفتها الآنسة عايدة العمروسي.

ركوب الباخرة فرينتون

وحانت الساعة الخامسة فودعت وركبت مع الأستاذين العمروسي ويس إلى دار القنصلية، فحملنا الحاجة وأتباعها إلى الباخرة «فرينتون»، وكانت واقفة إلى جانب الرصيف في الشارع.

الفصل الرابع عشر

من بيريه إلى برنديزي

الباخرة «فرينتون» باخرة يونانية دمًا ولحمًا، وأكلًا وشربًا، وعمالًا وركابًا، صغيرة ململمة الأطراف، يكاد طولها يساوي عرضها، فهي أرنب كبير أو سلحفاة.

ومعظم الركاب من جماعة دَكَّ يَدُكُّ دَكًّا، احتلوا ظهر الباخرة ومماشيها، فلم يبقَ فيها مكان لسائر وسط أكوام اللحم الحي من الركاب وأولادهم وفراشهم وأباريقهم وقللهم وطعامهم وشرابهم ودجاجهم.

على الباخرة فرينتون

ولم أكد أجتاز باب غرفتي حتى رأيت الزميل الصديق العزيز الأستاذ أنطون يعقوب والسيدة زوجته وابنتهما، وبعد التحية، عرفني إلى الشاب المصري زكي إسكندر أفندي، كاتب صحة مركز شبرا، مثال الناشئة المصرية الحديثة التي أدركت لذة السياحة في الخارج وفوائدها، فنشطت لاقتحامها على الدك وفي النوريستكا والدرجة الثالثة.

وقد خرج صاحبنا زكي أفندي من مصر بلا زميل أو رفيق أو مرشد.

أخذ تذاكره من شركة السياحة الإيطالية للذهاب والإياب بحرًا، واللف في إيطاليا من الجنوب إلى الشمال، والنزول في الفنادق بالكوبونات المعروفة.

وقد أرشدته إلى المدن التي يحسن به زيارتها.

وكان العشاء الدسم ونبيذ الأتيكة العتيق الذي يُقَدَّم مجانًا بسخاء على المراكب اليونانية.

وعند منتصف الليل وصلنا إلى مدينة باترس، فنزل إليها كثير من الدكيين وغيرهم، وأُفرِغت بضائع وشُحِنت أخرى.

ساعات في كورفو

واستيقظنا صباحًا، والباخرة تسير وسط الجزر حتى وصلنا إلى جزيرة كورفو في الساعة الرابعة بعد الظهر.

وكورفو فريدة عقد الجزر الأيونية، لها مثل بقية الجزر والبلاد اليونانية التاريخ القديم والمجد الحربي، والتقلب بين يدي الدول المختلفة.

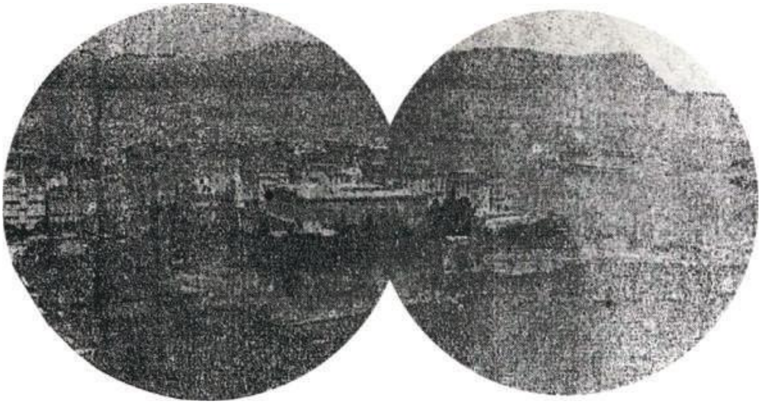

منظر عام لساحل كورفو.

وكنت قد حدثت الإخوان عن قصر أخيلون المشهور في كورفو فأرادوا مشاهدته، ولكن لم يكن هناك متسع من الوقت لزيارته.

فاكتفينا بركوب عربة طافت بنا الكورنيش وبعض أنحاء المدينة، وانتهى بنا الأمر إلى قهوة على المرفأ، كان الزميل أنطون يطمع فيها بشيشة فلم يجدها.

بين ساحلي الأدرياتيك

واستأنفت الباخرة سيرها فوصلت في الساعة الرابعة بعد الظهر إلى كورنتا (الأربعين قديسًا) من مواني ألبانيا، ولم يسمح للركاب بالنزول إليها، وتأخرتْ ساعات لمعاملات خاصة بشاب ألباني أرادت الحكومة الألبانية القبض عليه، فأبى الربان تسليمه.

وانقضت الرحلة على خير حال، فلا قلقلة ولا رجرجة، بل كان الحر شديدًا، فهيأ لنا سهرات على الدك تسامرنا فيها طويلًا في شئوننا المصرية والصحافية.

ساعات في برنديزي

وبلغنا مدينة برنديزي في الموعد المقرر للوصول، وهو الساعة السابعة من صباح يوم الأربعاء ١٠ أغسطس.

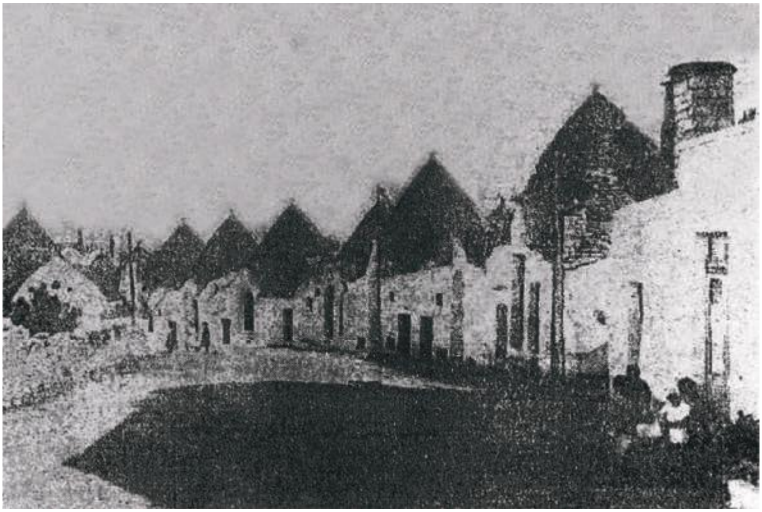

من المناظر القديمة في برنديزي.

ولبرنديزي عند الإخوان الإيطاليين مقام رفيع وتاريخ حافل بالحوادث الجسام، وفيها ما في غيرها من المدن الإيطالية من متاحف ودور علم وآثار مشهورة، يمر بها

المصريون وغير المصريين كرامًا سواء استأنفت بهم السفن سيرها في الأدرياتيك أو إلى البحر الأبيض، أو نزلوا لركوب القطارات إلى روما ونابولي.

وقد ازدادت علاقات برنديزي بمصر، منذ فتح قنال السويس لنقل بريد الهند، على ما ذكره أستاذنا شيخ العروبة في كتابه «السفر إلى المؤتمر».

ووقفت الباخرة «فرنتون» إلى جانب رصيف الشارع.

وكان للطربوش المحترم عمله في تكوُّف الحمالين والحوذيين ومترجم الميناء حول الصحافي العجوز، ولكني عرفت كيف أتخلص منهم بالتي هي أحسن.

الفصل الخامس عشر

في باري ونابولي

ودعت الأستاذ أنطون وعائلته وزميلهم زكي أفندي؛ إذ أرادوا أن يسبقوني في السفر إلى روما.

وركبت مع الحاجة شنطة عربة يجرها حصان أكل عليه الدهر وشرب، فانطلقت بي خببًا إلى محطة سكة الحديد قاصدًا باري.

والمسافة بين برنديزي وباري مثل المسافة بين القاهرة والإسكندرية.

وباري هي المدينة الإيطالية البحرية، التي تداولت صحفنا اسمها في السنين الأخيرة لمناسبة اشتراك مصر في سوقها السنوية التي تقام في أوائل شهر سبتمبر.

ثم أكثرت الصحف المصرية والعربية من ذكرها والكتابة عنها منذ أشهر، مردِّدة اسم محطة راديو باري الإيطالية إلى جانب اسم محطة ديفنتري الإنكليزية، مفصلة كل يوم أخبار الحملة الشعواء التي كانت تقيمها هذه المحطة على تلك طردًا وعكسًا من الردح الشلق ماركة «حوش بردق»، إلى أن كانت الهدنة، فالاتفاق الإنكليزي الإيطالي الأخير.

باري قديمًا وحديثًا

ولمدينة باري تاريخ قديم يرجع إلى ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وقد حكمها اليونان، وذكرها هوراس، وكانت لها شهرة عظيمة في التجارة البحرية بين الشرق والغرب، ومنها خرجت الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ بقيادة «أبونا بطرس الراهب».

ولا تزال المدينة القديمة حافظة شكلها من أَزِقَّة ضيقة وبوائك وبوابات. أما المدينة الجديدة، فقد بُدِئَ في إنشائها وتعميرها منذ أول القرن الماضي، فمدت الشوارع الفخمة، وأُقِيمت على جانبيها العمارات العالية الذُّرَى والفنادق العظيمة.

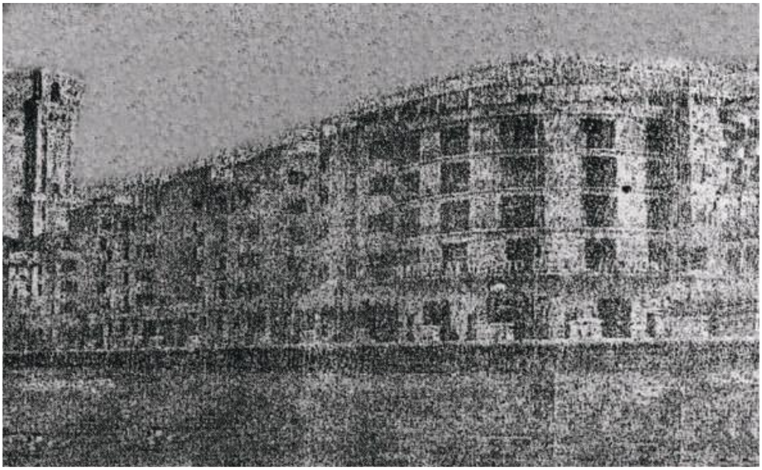

فندق الأمم على كورنيش باري.

وشملتها عناية الدوتشي موسوليني وإصلاحاته لبلاد الجنوب الإيطالي، فجدد مرفأها ووسعه، ومد الكورنيش البحري الذي يبلغ طوله ٢٧ كيلومترًا مضاءة بأنوار الكهرباء.

وفي مدينة باري ما في غيرها من المدن الكبرى من أندية الفاشزم ومكتبة عامة ومتحف وجامعة وتياترات كبيرة وسينمات ... إلخ إلخ.

وللمحطة ميدان فسيح، فيه مواقف للتاكسيات وعربات الأجرة ذات الجواد الواحد الهزيل.

ونزلت في «فندق الأمم»، وهو من أحدث فنادق إيطاليا.

وقضيت السهرة في إحدى قهوات شارع كافور، وهو شارع يبلغ عرضه نحو ٥٠ مترًا، غاص بالأندية والمخازن ذات الفترينات المزدانة بالبضائع النفيسة.

وسألت عن المدينة القديمة فأرشدوني إليها، وحملتني إليها عربة طافت خلال ما بقي من الأطلال والدمن، فزرت الكنيسة والقصر والقلعة، ونزلت من العربة وتجوَّلت في الأزِقَّة وتفقدت مخازن النحاس القديم والحديد المطروق، وأبيت أن أترك هذه المدينة القديمة قبل أن أشرب فيها القهوة مع الحوذي العجوز.

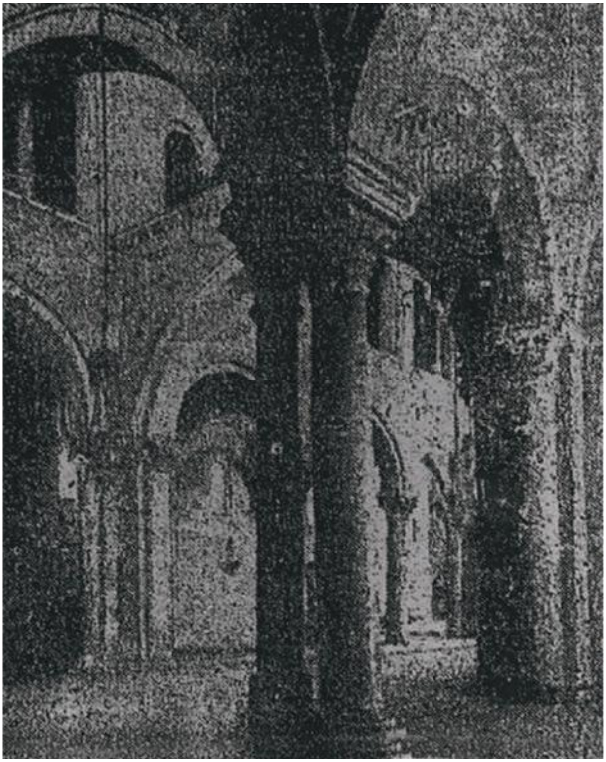

كنيسة القديس نيقولا في باري القديمة.

ثم خرجت إلى المدينة الجديدة، وسارت بي العربة أعلى الكورنيش مسافة أربعة كيلومترات.

وهو يمتاز على كورنيش الإسكندرية بخط ترام، يوصل إلى أرض سوق باري التي لا تزال في نشأتها، وفي طريقها حمام بحري لا بأس به.

والحركة قائمة في السوق لافتتاحها يوم ٦ سبتمبر، وقد قابلت المدير فرحَّب بي، وأطلعني على صور عدة للسوق وأقسامها، وأراني صورة لقسم الصحافة وقد عرضت فيه صحيفتنا «الأهرام».

وعدت من السوق إلى الفندق للكرزمة والقيلولة.

ولم أجد حاجة لزيارة المكتبة والمتحف أو غيرهما من المعاهد العلمية والفنية لضيق الوقت، ولتأكُّدي من أنها لا تعد شيئًا إلى جانب ما في روما والمدن الفنية في إيطاليا مثل فلورنسا وفينيسيا.

واكتفيت بالسير مسافة غير طويلة على الكورنيش والتجوُّل في أنحاء المدينة الجديدة والجلوس ساعة في قهوة النادي البحري والسهر في قهوة سافوي بشارع كافور العظيم.

وخرجت من باري معجبًا بكل ما فيها من قديم وحديث ونهضة في التجديد والتعمير والصناعة والتجارة.

وركبت القطار السريع ظهر يوم الجمعة ١٢ أغسطس قاصدًا نابولي المدينة الساحرة.

أيام في نابولي

نابولي مدينة الخليج البديع الجامعة بين البحر والجبل، فهي نهارًا عقد من الأزهار، وليلًا قلادة من الأنوار. تتوسطها فريدة من الزمرد الأخضر هي جزيرة كابري. وهنا وهناك انتثرت مدن الشواطئ الزاهرة وأخصها سورانتو وأمالفي. فإذا أنت خرجت من المدينة في القطار أو السيارة وجدت نفسك بعد نحو ساعة وسط أطلال مدينة بومباي وهوركولانيوم إلى جانب بركان فيزوف وقانا الله شر ثورته وحممه وقذائفه.

وكانت نابولي أول مدينة أوروبية زرتها سنة ١٩٢١ وكررت زيارتي لنهار أو أقل، إلى أن كانت السنتان الماضيتان فأقمت كل مرة يومين، وزرت أهم ما فيها من متاحف ومكتبات.

وقضيت فيها ليلة السبت، وبكرت صباحًا قاصدًا القنصلية المصرية فاستقبلني حاجبها محمد قنديل أفندي بوجهه الصبوح مرحِّبًا، وقابلت الأستاذين شكري فانوس القنصل بالنيابة، ووهبة المصري أمين المحفوظات.

مثال طيب للشباب المصري

والأستاذ المصري خير مثال للشبيبة المصرية في المفوضيات والقنصليات المصرية. وأقصد بهم الشبان الذين يدركون نعمة وجودهم خارج بلادهم فيقضون أوقات فراغهم في الدرس والبحث وإتقان اللغات.

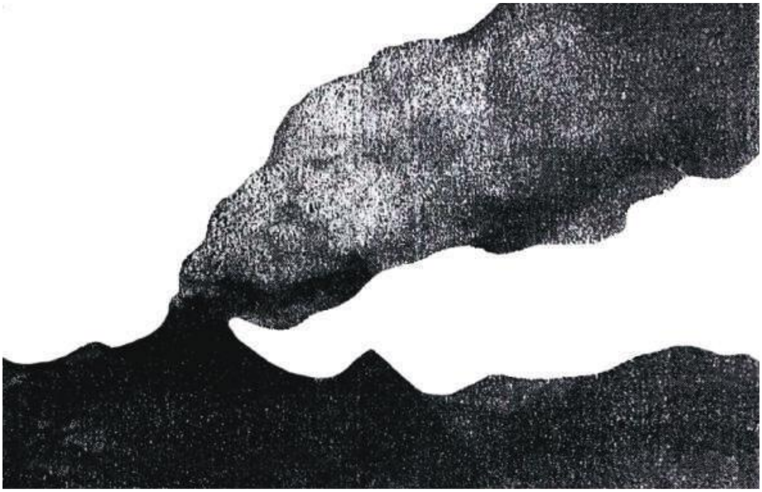

بركان فيزوف الثائر.

وقد أحرز الأستاذ المصري البكالوريا المصرية من مدارس الفرير بالقاهرة، واشتغل مترجمًا بالمحافظة، وانتقل منها إلى وزارة الخارجية.

ولم يكد يمضي في نابولي ستة أشهر حتى شرع في درس الحقوق منتسبًا إلى الجامعة، فأدهش أساتذته وممتحنيه بقدرته على الإجابة شفاهًا وتحريرًا بلغة إيطالية صحيحة.

المضياف أمين يوسف بك

وفي القنصلية قابلت الأستاذ أمين يوسف بك، الرجل المضياف في مصر وخارج مصر، فهنَّأته بالسلامة، وذكرته بمقابلته لي منذ عشر سنوات تامة في مدينة كولونيا الألمانية (على شاطئ الرين)، وعشائي معه في بروكسل.

ودعاني مع الأستاذين فانوس والمصري للغداء في الباخرة روما والفرجة عليها.

وكانت كرزمة شرقية أفاض فيها علينا الأستاذ أمين أحاديثه الشائقة عن رحلاته القديمة والحديثة، وزياراته لأوروبا وأمريكا، وتقدير الحكومات الأجنبية لأعماله في مصلحة التموين.

وفصَّل لنا خبر الباخرة «روما»، فقال: من أحسن ما رأيته فيها ثلاثون من الشبان والشابات المصريين اشتركوا في الرحلة، وهم بهجة السفينة وقرة عين ركابها، يملَئونها فرحًا وحبورًا، ويمثلون مصر خير تمثيل بأدبهم في حركاتهم وسكناتهم آكلين شاربين راقصين مغنين.

وبعد الأكل طافَ بنا الأستاذ أرجاء الدرجة الأولى.

ونزل مع الأستاذ المصري إلى البلد لإنجاز بعض الأعمال، وتركني والأستاذ فانوس في الباخرة، فأسمعني الأستاذ فانوس الكثير من معلوماته عن حركة الملاحة والتجارة البحرية في مواني البحر الأبيض المتوسط.

سهرة في مَرقص الأورانجيري

وبعد عودة الأستاذ أمين بك ودَّعناه، وانصرف الأستاذ فانوس، وقضيت والأستاذ المصري أمسية موسيقية في قهوة كفاليش على شاطئ البحر.

منظر عام لمدينة نابولي.

ثم ركبنا أتوبيسًا أقلَّنا إلى ضواحي المدينة في شارع طويل تمتد إلى أحد جانبيه روضة فيحاء. ثم صعدنا في الفونيكيلير إلى قهوة الأورانجري (حديقة البرتقال)، وفيها يحمي وطيس المُراقصة حتى وجه الفجر، ولكن التعب حكم علينا بالانصراف.

وأبى الأستاذ المصري إلا أن نأكل ونشرب في مطعم بلدي فيه الإسباجتي النابوليناني وخمرة كابري.

الفصل السادس عشر

الأيام الأولى في روما

غادرت نابولي يوم الأحد ١٤ أغسطس الساعة الثامنة صباحًا، فوصلت إلى روما بعد نحو ثلاث ساعات.

وبإرشاد شركة السياحة الإيطالية، قصدت بانسيون ميلتون.

بانسيون ميلتون وما يحيط به

واسم هذا البانسيون يجذب إليه السياح الإنكليز والأمريكيين الذين يقدرون الشاعر الإنكليزي الأعمى، ويحفظون قصيدته الخالدة «الفردوس المفقود».

أما عامة المصريين وخاصتهم فإنهم يذكرون اسم ميلتون الجراح وأستاذ الجراحة الشهير في قصر العيني.

وبانسيون ميلتون واقع وسط البلد إلى جانب بوابة بنشيانا، وهو يطل من ناحية على حدائق بورجبزي ورياضها التي تضم متحف الفن الحديث ومعاهد الفنون الأجنبية وكازينو الورد، وغياض جوليا حتى الجبل، ويشرف من الناحية الثانية على شارع فينتو العظيم، أكبر شوارع روما وأحدثها وأحفلها بالفنادق الفخمة والقهوات العامرة بالزبائن من الطبقة العليا سواء من الإيطاليين والأجانب.

تاجر مصري مهذب

وكان من محاسن الصدف أن لقيت في البانسيون التاجر الوجيه حسن السلالي، وهو مصري أوروبي النشأة، تلقى علومه الابتدائية والثانوية في المدارس الإيطالية بالإسكندرية،

وعفَّ عن الوظائف واشتغل بالتجارة، ونال ما تمنى من نجاح مالي بنشاطه وجِدِّه واتصاله بأصحاب المصانع الكبرى في أوروبا.

حلو الحديث، خبير بصناعته، يتمثل بأقوال حكماء الغرب وأدبائه من دانتي إلى كاردوتشي، ويتألم لأنه لا يجد حتى الساعة الشبان الأَكْفَاء من خريجي مدارس التجارة المصرية ليعملوا معه.

لفة صغيرة في المدينة

ولم يكد الأستاذ السلالي يعرفني ساعة وصولي، حتى استدعى ابن عمه صديقي بسيوني السلالي أفندي كبير الحُجَّاب في المفوضية المصرية المعروف بهمته وخدمته للمصريين الذين يقدِمون إلى روما مرورًا أو إقامة لزمن ما.

فحضر على عجَل وصحبني إلى المفوضية فتسلمت كتابًا من صديق لي في ألمانيا، ثم عرجنا على بيت السلالي فتناولت القهوة واطلعت على صور فتوغرافية لحفلة أقامها رب البيت فرحًا بزواج حضرة صاحب الجلالة الملك. وعزفت ابنته سميرة وعمرها ثماني سنوات ونصف قطعًا شجية على البيانو منها نشيد الملك فؤاد من وضع المرحومة ماتيلدة عبد المسيح.

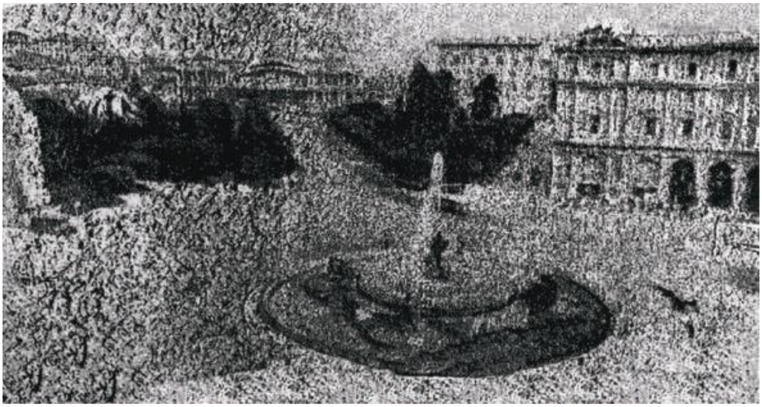

من مناظر روما: ميدان أسدرا بجوار المحطة.

ثم قصدنا دار السنيور كالي حمي الصديق الأستاذ راغب عياد، وسألت عن الأستاذ، فعلمت أنه والسيدة زوجه خارج روما.

وعدت إلى البانسيون متأخرًا، فوجدت طعام العشاء كاملًا في غرفة النوم.

وأصبحت يوم الاثنين، فإذا الأعمال معطلة والمخازن مقفلة، احتفالًا بعيد الصعود، فكانت راحة إجبارية بين نوم وجلسات في قهوات شارع فينتو العظيم.

السؤال عن رهبان الموارنة في روما

وكنت أحمل من أستاذي الجليل الشيخ يوسف الخازن عنوان سيادة الأباتي مارتينوس طربية ليرشدني إلى سيادة الأباتي يوسف الخازن. وأحمل منه كذلك كتابين للزميلين المسيو فوشيه مكاتب «الأهرام»، والزميل الأستاذ يحيى شريف اللبابيدي مكاتب الصحف السورية في روما.

وسألت السيدة وكيلة البانسيون عن مقر سيادة الأباتي طربية فقالت إنها لا تعرفه، وأرشدتني إلى بواب عمارة البانسيون قائلة: إن هذه العمارة ملك الرهبان الموارنة وفيها دير لهم، ولكنهم الآن غائبون في مصيفهم، وعند البواب عنوان هذا المصيف والتعريف بطريق الوصول إليه.

وقابلت البواب المحترم، فأبدى لي أسفه لغياب الرهبان الموارنة كلهم خارج روما.

زيارة شماس لبناني مثقف

وحدث في اليوم التالي أنني كنت داخلًا إلى البانسيون ظهرًا، فرأيت راهبًا على الباب فسألته هل هو موارني؟

فأجاب: نعم، ومين تكون حضرتك؟

قلت: الصحافي العجوز محرر هامش الأهرام.

أجاب: أهلًا وسهلًا، وماذا ترغب حضرتك؟

قلت: جلسة صغيرة معك بعد الظهر.

أجاب: فليكن ما تريد.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر كنت مع الراهب في صومعته، وهي غرفة ساذجة تحتوي على السرير الحديدي وخزانة الملابس ورفوف الكتب ومائدة وكرسيين من الخشب ومغسل.

وبدأنا حديثنا بأن سألته عن الاسم الكريم أجاب بلغته اللبنانية العذبة: داعيكم الشماس ميشيل خليفة من البترون، وقد تخرجت في كلية الآباء اليسوعيين ببيروت وحصلت منها على البكالوريا العربية والفرنسية، ثم رغبت في دراسة الفلسفة واللاهوت فجئت إلى روما ونلت ليسانس الفلسفة بعد درس ثلاث سنوات، وأشتغل الآن للحصول على الدكتوراه.

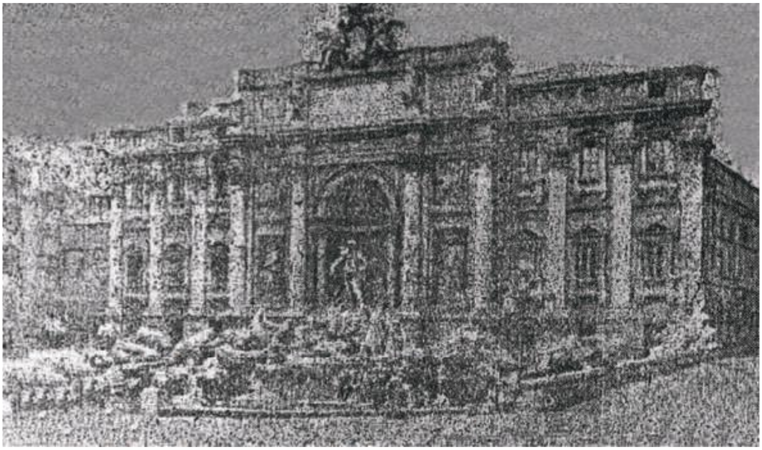

من مناظر روما القديمة: حنفية تريفن وتمثال سيدنا موسى.

قال: وأنا مع ابتعادي عن أهل بلادي ولغتي فإنني شغوف بالعربية، فتجد بين كتبي الإيطالية كليلة ودمنة ومنتخبات الأغاني والروائع وشرح الألفية.

وطفق يحدثني عن محبته لمصر والمصريين وشغفه بالشرب من مياه النيل وزيارة آثار الفراعنة.

واعتذر عن تقديم القهوة بغياب الخادم، وأبدلها بطبق من القاوون الشهي.

أملاك الموارنة ومعاهدهم في روما

قلت: هل صحيح أن هذه العمارة ملك لكم؟

قال: نعم يا سيدي، فقد كان لطائفتنا مدرسة في روما منذ القرن السابع عشر، فلما غزا نابليون إيطاليا وضع يده على هذه المدرسة وبعثر ما كان في خزائنها من

مخطوطات ثمينة قَيِّمَة، ثم دخلت المدرسة في أملاك الحكومة الإيطالية وطال زمن مطالبتنا بثمنها إلى أن دُفِع إلينا.

وعُنِي سيادة البطريرك الحويك منذ كان مطرانًا بإعادة المدرسة، فجمع إعانات من هنا وهناك ضمَّها إلى ثمن المدرسة القديمة واشترى هذه العمارة ووسَّعها وجعلها مأوًى للطلبة الموارنة الذين يحضرون إلى روما للدرس والتحصيل، ويسكنها الآن ١٢ طالبًا للفلسفة واللاهوت يدرسون كلهم في الكلية الغريغورية التي تضم ٢٣٠٠ طالب من جميع أنحاء العالم.

ولطائفتنا أيضًا مركز للرهبنة الحلبية فيه ١٢ طالبًا، يتلقون العلم في مدرسة القديس يوحنا اللاطراني.

وللرهبنة الأنطونية ملك في جانيكولو يقيم فيه القس أبو جودة، ويسعى الآن لإحضار تلاميذ يقيمون معه لطلب العلم الديني.

ولبعثتنا مصيف في جنسانو على بعد ٢٠ كيلومترًا من روما تحيط به حدائق غناء، وكانت الحكومة قد وضعت يدها عليه فاستُرجع بهمة سيدنا البطريرك الحويك، وسيادة المطران شديد رئيس البعثة وصاحب الفضل في إنشاء الدار وتجديد المصيف ورعاية الطلبة.

وللرهبنة الحلبية مصيف في ششليانو، حيث الأرض الجرداء والصخور الصَّمَّاء التي تذكر رهباننا بجرود لبنان.

ساعات مع الآباء الموارنة المحترمين

وفي خلال الحديث خاطب بالتليفون سيادة الأباتي مرتيفوس طربية، وأبلغه رغبتي في التشرف بمقابلته، فحضر بعد ساعة حيث كنت في انتظاره بقاعة الفندق.

وقبَّلت يده وأبلغته سلام شيخي الخازن، وتحدَّثنا عن مصر وسياستها، ثم أطلعته على كتاب أحمله من سيادة المنسنيور مرقس خزام إلى الكاردينال تسيران ليسهل لي زيارة الفاتيكان، فقال إن نيافة الكاردينال غائب عن روما والبركة في أبونا الخازن، فهو لك خير مرشد ودليل.

وركبت الترام مع الأب المحترم إلى بيت الأباتي الخازن على مقربة من الكولسيوم.

والأباتي يوسف الخازن يقيم في المدينة المقدسة لأربعين سنة خلت، ووجدنا عنده الأباتي يوسف الخوري العراموني الرئيس العام السابق للرهبنة الأنطوية.

ولم تكن الجلسة غريبة على الصحافي العجوز.

وتنقلنا في الكلام بين القديم والحديث وسير الناس، وأخصهم الأستاذ يوسف أصاف بك المحامي المعروف وصاحب جريدة المحاكم في مصر.

وتفضل الأباتي الخازني بأن يصحبني في اليوم التالي لزيارة الفاتيكان بعد أن يقوم بخدمة القداس.

ونزل معي سيادة الأباتي طربية حتى أوصلني إلى الترام.

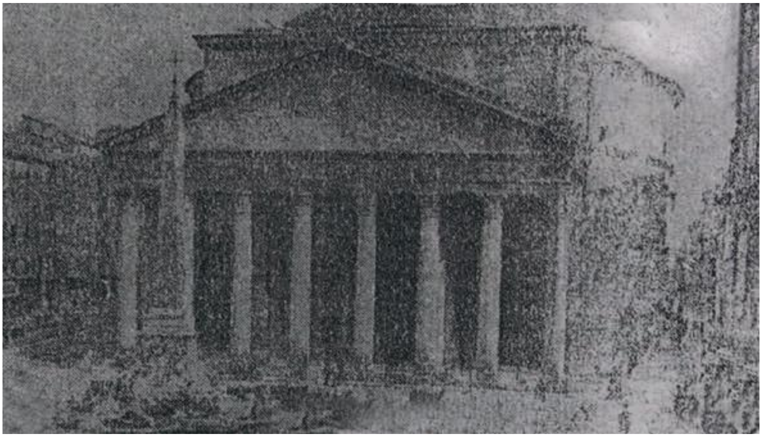

من مناظر روما القديمة: هيكل البارتينون.

الفصل السابع عشر

جولة في الفاتيكان

الأربعاء ١٧ أغسطس، أول أيام الزيارات في روما.

شرفني الأباتي يوسف الخازن في الموعد الذي ضربه لي، في سيارة يقودها شاب إيطالي، فانطلقت بنا من شارع إلى ساحة، وسيادة الأباتي يعرفني بكلمات خبر كل زاوية وكل أثر، حتى وصلنا إلى ميدان الشعب، وفيه تماثلان كبيران أحدهما للقديس بطرس وهو يكتب، وثانيهما للقديس بولس وهو يخطب.

قال الأباتي: إن أهل روما مشهورون بالنكتة البارعة، ومن نكتهم المأثورة عن التمثالين أن روما تصنع القوانين (التي يسطِّرها ماري بطرس)، ولكنها تُنفَّذ في الخارج (إشارةً إلى ذراع ماري بولس المرفوعة).

ووصلنا بعد دقائق إلى ساحة كنيسة القديس بطرس ومنها إلى مدينة الفاتيكان، ولا بد للدخول إلى المدينة من إذن خاص إلا لمن يحملون تصريحًا دائمًا، أو كانوا معروفين عند الحرس.

في حدائق الفاتيكان

والأباتي الخازن معروف، وكان يقابَل في كل خطوة بتحية الحرس، فتجولنا في حدائق قداسة البابا، وتفرجنا على محطة السكة الحديدية التي تم إنشاؤها سنة ١٩٣٥ وإلى جانبها الخط الحديدي وبوابة تفتح بالكهرباء.

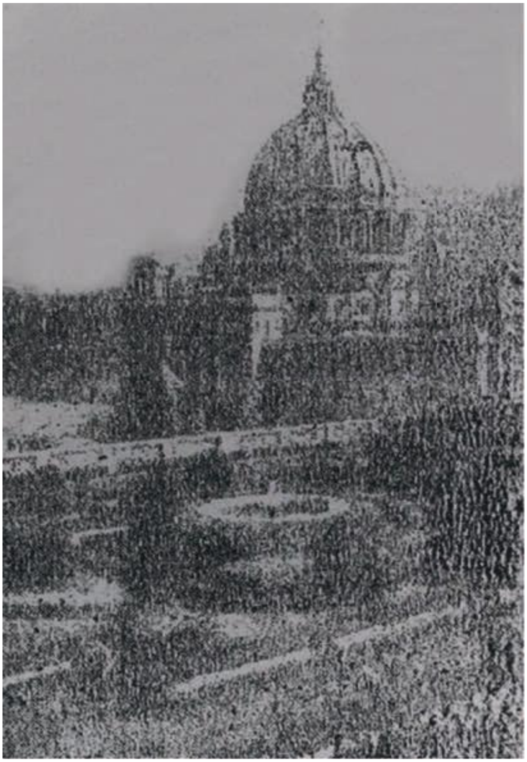

كتدرائية القديس بطرس.

قال الأباتي: إن قداسة سيدنا البابا لم يخرج في القطار البخاري منذ أنشئت هذه المحطة، بل يسافر بالسيارة إلى مصيفه في كاستل جوندولفو.

ثم أراني محطة راديو الفاتيكان، والمرصد الفاتيكاني، وعمارة مدرسة الحبشة، وقصر الحاكم المدني لمدينة الفاتيكان الذي اتُّفِق على تعيينه في المعاهدة الأخيرة بين الحكومة والفاتيكان.

في مكتبة الفاتيكان

وبعد هذه الجولة قصدنا إلى دار الكتب الفاتيكانية، وقابلنا فيها الأستاذ جوليو جورداني رئيس قسم الفهارس، وتركت كارتًا للبروفسور عمانويل موسو سكرتير المكتبة.

وجلسنا نحو نصف ساعة مع البروفسور ليفي دلافيدا المستعرب الإسرائيلي الذي قضى زمنًا في الأزهر وتخصص لدراسة تاريخ الأدب العربي.

وقد وضع الأستاذ دلافيدا فهرسًا مختصرًا باللغة الإيطالية للمخطوطات العربية في مكتبة الفاتيكان وعددها ١٧٠٠ مخطوطة، وفي آخر هذا الفهرست جدول بأسماء الكتب الموصوفة باللغة العربية، وثمنه ١١٠ ليرات.

ويشتغل مع زميله البروفسور جراف الألماني بوضع فهرست مطول للمخطوطات النصرانية والإسلامية في مكتبة الفاتيكان طبعًا منه ١٤٠ صفحة بالحجم الكبير، ووصفًا فيه ٥٠ مخطوطة، ولا يعلم البروفسور دلافيدا متى يظهر الجزء الأول من هذا الفهرست العظيم.

ويعلم المشتغلون بالكتب والمكتبات أن للدكتور جراف كتابًا باللغة الفرنسوية في وصف المخطوطات العربية النصرانية في مكتبات القاهرة وأخصها مكتبة بطريركية الأقباط الأرثوذكس والمتحف القبطي، وثمن النسخة من هذا الكتاب ١٠٠ ليرة إيطالية.

وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة، فأوصلني الأباتي الخازن إلى باب المتحف، فودعته شاكرًا له خدمته التي لا أنساها.

جولة في متحف الفاتيكان

ومتحف الفاتيكان من المتاحف العالمية المعروفة زرته للمرة الأولى سنة ١٩٢١، وقد تهدمت بعض أجزائه فأعيد بناؤها وصنع له سلم بديع من الرخام المجزع.

وينقسم المتحف قسمين: الأول للتماثيل والآثار والتحف الفنية الكنسية، والثاني للصور.

متحف طوابع الفاتيكان

وفي المتحف منشأة حديثة لطوابع البريد تُعَدُّ فريدة في بابها ومحتوياتها، وهي مجموعة لطوابع بريد مملكة الكنيسة التي ظهرت أول طبعة لها سنة ١٨٥٢ ولا تزال ملصقة على مظاريفها ومختومة بالأختام الدالة على تواريخها، ثم طوابع مدينة الفاتيكان التي أنشئت بعد الاتفاق الأخير ولوحات الطبع والكليشهات الخاصة بها، و«ألبومات» تحتوي على طوابع من ممالك مختلفة أهديت إلى قداسة البابا الحاضر.

قداسة البابا بيوس التاسع.

ومجموعات من طوابع الممالك المختلفة التي صدرت منذ شهر يوليو سنة ١٩٢٩، وتذاكر بوستة، ومجموعات من الطوابع التذكارية والخاصة مثل طوابع البوستة الجوية والصليب الأحمر وغيرها.

واحتفل بافتتاحه يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٦، وفصلت الصحف خبر افتتاحه ووصفه في مقالات مصورة.

جندي من حرس الفاتيكان.

الصورة والتماثيل والآثار

ومتحف الآثار في الفاتيكان، وضع أساسه قداسة البابا كلمانتوس سنة ١٧٦٩ وحفظ فيه التحف التي جمعها البابا جول الثاني وليون العاشر، وبذل سادتنا خلفاء القديس بطرس جهودًا جبارة في الحصول على الآثار والتحف بين رومانية وأجنبية، ووسعوا المتحف وزينوا غُرَفَه بالصور والنقوش بريشات كبار المصورين والمزخرِفين حتى بلغ درجته الحالية.

وليس في المجال سعة لوصف هذا المتحف أو عَدِّ ما فيه من أقسام وقاعات، ومنها قاعة الأبسطة والخرائط الجغرافية والمتحف المصري، وفيه المومياء وأوراق البردي والتماثيل الأصلية والمقلَّدة، ثم مخلفات البابا إسكندر السادس، ومصورات رفابيل، والمعبد السكستي ... إلخ.

وهكذا قُلْ عن متحف الصور وفيه ١٣ قاعة، يقصر البصر عن النظر إلى محتوياتها من لوحات بيزنطية وفلورنتية وقطع نادرة لكبار المصورين من أمثال فلبينو ليبي وإنجاليكو وفورلي وبلليني وفراري وبيوميا، ولكل صورة تاريخها وفنها ومقامها عند العارفين.

وأخيرًا أضناني السير وأرهقني، فعدت إلى الفندق متعبًا، ونمت بعد الغداء واستيقظت غروبًا.

الفصل الثامن عشر

في المعرض الأوغسطي

احتفلت إيطاليا في السنة الماضية بمرور ألفي سنة على مولد القيصر أغسطس، ورأى الدوتشي موسوليني أن يكون لهذه الذكرى أثرها في التعريف بمجد الرومان القديم وحياة القيصر والبيئة التي كان يعيش فيها.

فقرر إقامة المعرض الأوغسطي الذي افتُتح في ٢٣ سبتمبر الماضي ويقفل في ٢٣ سبتمبر الحاضر.

وقد أشرت إلى هذا المعرض في السنة الماضية، ودعوتُ المثقفين من أبناء الجامعة المصرية وخريجيها والباحثين في التاريخ إلى زيارته ودرس بلاد الرومان في معروضاته.

معرض ثقافي دولي تاريخي

وجئت إيطاليا لأغراض أهمها التمتع بمشاهدة هذه المستندات والوثائق التي يعسر على غير الفنانين والمؤرخين الإيطاليين جمعها وترتيبها في دار واحدة.

فقد عرَف القوم كيف يبسطون أعمال أسلافهم من البحر الأبيض المتوسط إلى الصحراء، ويشرحون مظاهر الحياة المدنية فيها.

ورأت بعض الدول والحكومات الأجنبية أن تساعد إيطاليا على إتمام غرضها من هذا المعرض، فقدمت إليها الكثير مما تحويه متاحفها من وثائق وتحف ذات عَلاقة بالعصر الأوغسطي.

فبلغ مجموع ما في المعرض ثلاثة آلاف رسم، و٢٠٠ نموذج، وعددًا لا يُحصى من الصور الفتوغرافية والصور البدوية، وغيرها من التماثيل وقطع الأحجار المختلفة.

وطبعوا له كتالوجًا باللغة الإيطالية ضمَّنوه تعريفًا بكل معروض وذيَّلوه بالكثير من الصور، وطبعوا له مختصرًا مصوَّرًا باللغات الأجنبية.

ونضدوا المعروضات في ثلاثة أدوار في سراي المعارض بالشارع الوطني (فيا نا زيولي) على مقربة من المحطة الكبرى.

ولكل زائر علمه ورغبته في الدرس والاستقصاء.

فالبعض يمرون بهذه التحف مرور الكرام، والبعض يقفون أمام كل صورة وكل أثر دقائق أو ساعات.

وقد استعنت بنبذة فرنسوية تحتوي على بيان وجيز عن المعرض لتفهُّم هذه الركام من الآثار الحقيقية والمصورات والنماذج المجسمة.

أقسام المعرض ومحتوياته

فرأيت في الدور الأرضي كيف نشأت روما وامتدت الدولة الرومانية حتى نهاية حرب قرطاجنة وآثار أوغسطس قيصر وأسرته والطرق والمباني التي شُيِّدَتْ في عهده والدفاع عن الحضارة الرومانية ودخول النصرانية إلى المملكة الرومانية.

ورأيت في الدور الأول الحياة العامة في روما والمدن والأقاليم الداخلية ونظام التشريع والجيش والبحرية والديانة والشبيبة والإصلاح الاجتماعي.

ورأيت في الدور الثاني نماذج الهندسة وطرق المواصلات ودور القضاء والهياكل والمعابد والأسواق العامة والحمامات والمناجم والمسارح وميادين السباق والألعاب الرياضية والتجارة والزراعة والمدرسة وخزائن الكتب والآلات الموسيقية.

ورأيت في الدور الثالث الحياة البيتية وطرق التجمُّل والتأنُّق والتعذية والألعاب، وكيف كانت تعيش العائلة في ذاك العصر القديم وخريطة لروما في عصر الإمبراطور قسطنطين.

مع رئيس قسم الصحافة

وقابلت رئيس قسم الصحافة والدعاية في المعرض، وأبلغته إعجابي بكل ما شاهدته.

قال: وهل تريد معلومات أخرى أو بيانات؟

فشكرته معتذرًا عن حمل مطبوعات، فعرض عليَّ مجموعة من صور فتوغرافية مختلفة لأهم المعروضات، فانتقيت منها عشر قطع.

تمثال جندي روماني قديم.

متحف للعصر الأوغسطي

وأبديت له أسفي على تبدُّد محتويات هذا المعرض، فقال: هذا رأي الكثيرين؛ ولذلك قررت الحكومة الفاشستية إنشاء متحف لهذه الوثائق لتذكير الأبناء بمجد الآباء، وحثِّهم على اقتفاء أثرهم واستئناف عملهم في توطيد دعائم المدنية.

الرومان الأقدمون حاربوا البربرية والهمجية، ويجب أن يحارب أبناؤهم البلشفة والفوضى الاجتماعية.

وودَّعت الرئيس لتناول الغداء في الأكاديمي المصرية للفنون.

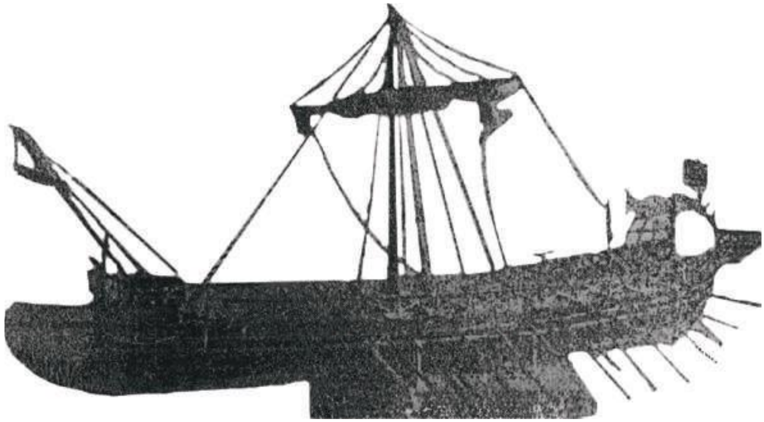

سفينة رومانية قديمة.

الفصل التاسع عشر

في الأكاديمي المصرية

داران في رومة، يجب على كل مصري أن يزورهما: المفوضية المصرية، والأكاديمي المصرية للفنون.

ففي اليوم الثالث لوصولي إلى رومة، سألت بالتليفون عن الأستاذ سحاب رفعت ألماس مدير الأكاديمي، ومدير البعثة المصرية في إيطاليا، فلم أجده، ولكنَّ صوتًا مصريًّا طلب مني عنواني فأعطيته له، وفي مساء اليوم التالي خاطبني الأستاذ سحاب ودعاني للغداء على مائدته.

وقابلته في الموعد المحدد بميدان أسدرا على مقربة من المحطة، فأركبني سيارته الأنيقة ومعنا عبد السلام علي نور أفندي أحد طلبة الأكاديمي.

غدوة مصرية إيطالية

وكانت غدوة مصرية إيطالية فنية شهية.

اشترك فيها الأستاذ يحيى حقي قنصل مصر بالنيابة في روما، والأستاذ محيي الدين فهمي الملحق بالمفوضية، والمسيو بوزيو من رجال السينما، والطلبة عبد الحميد عزمي، وعبد السلام علي نور، ومصطفى متولي حسنين.

وكان لا بد من القيلولة، وفي غرفة الصديق الحفار عبد القادر رزق الفراش الوثير، وإلى جانبها الحمام بمائه البارد والساخن.

ثم كانت جلسة مع الطالب الفنان عبد السلام علي نور، شرح لي فيها ما فاتني الكلام عنه، في رحلة السنة الماضية، من خبر هذا المعهد المصري الفريد.

ما هي الأكاديمي المصرية

وعمارة الأكاديمي من أملاك الحكومة الإيطالية، قدمتها إلى الحكومة المصرية لإقامة بعثة الفنون والهندسة المعمارية المصرية إلى أن تبني لنا دارًا في الأرض التي منحتها لنا في حي الفنون حيث توجد لكل حكومة دار خاصة، ومقابل ذلك أعطينا إيطاليا أرضًا في الإسكندرية شيَّدت عليها معاهدها العلمية والفنية.

الأستاذ سحاب رفعت ألماس.

وقد تسلم هذه الأكاديمي منذ نشأتها سنة ١٩٢٩ الأستاذ سحاب رفعت ألماس، فأُعطِيَت القوس باريها، وعرف هذا الشاب الفنان كيف ينال مركزه الرفيع في قلوب رجال العلم والفن والأدب في إيطاليا سواء بفنه ومعرفته التامة باللغة الإيطالية وآدابها.

تمثال النظرة المؤلمة لمصطفى متولي حسنين.

فنانونا الشبان في الأكاديمي

ويقيم في الأكاديمي الآن أربعة من الطلبة وهم الأفندية:

عبد القادر رزق: خريج مدرسة الفنون الجميلة العليا بمصر في النحت، وعضو بعثة وزارة المعارف، وقد قضى سنتين في إيطاليا، ويقضي سنتين أخريين في فرنسا، ابتداء من أول ديسمبر القادم، وأعمال عبد القادر ومنها رأى الصحافي العجوز أدلة ناطقة بنبوغه.

وعبد الحميد عزمي: خريج كلية الهندسة، ويتخصص في هندسة المباني على نفقة صاحب السمو الأمير يوسف كمال، وقد قضى في روما سنتين ويقضي سنتين أخريين، وله في الأكاديمي عدة صور شاهدة بجِدِّهِ ومبشرة بنجاحه.

ومصطفى متولي حسنين: كان أول الدبلوم في مدرسة الفنون الجميلة العليا سنة ١٩٣٣، فأُرسِل إلى إيطاليا للتخصص في الحفر على نفقة سمو الأمير يوسف كمال، وقد أتم دروسه.

وأثنت الصحف الإيطالية على ما أخرجه من التماثيل، وأهمها: النظرة المؤلمة، والحلم السعيد، والعائلة، وحواء، والسجود، وسيدنا موسى وزوجته، والحياة، والراحة بعد الحمام.

وعبد السلام علي نور: خريج الفنون الجميلة، ويتخصص على نفقة الخاصة الملكية، في التصوير الخيالي والحفر على الخشب والزنك والليتوغرافية (الحجر).

وقد بدأ دراسته في فلورنسا، ثم دخل مدرسة أوربينو (وهي أكبر معهد للرسم الخيالي)، وكان الأول في امتحان الدبلوم فقررت إدارة المدرسة طبع أطروحته على الليتوغرافيا، على حسابها.

وتنشر صحف إيطاليا وإنكلترا صوره الخيالية، ويكتب بعضها فصولًا مطولة عن تفننه وإبداعه.

وأطلعني على ألبوم من الجلد الفني الثمين يحتوي على مجموعة فتوغرافية لأعماله، سيرفعه إلى أعتاب حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق، اعترافًا بفضل البيت المالك عليه وتشجيعه له على التحصيل.

ويرجو عبد السلام أفندي أن يقضي سنة في فرنسا للتخصص في الحفر على الزنك.

ولكل واحد من هؤلاء الطلبة وغيرهم غرفة للنوم في الأكاديمي وغرفة للعمل والتمرين، ولكن المتزوجين منهم ينامون في بيوتهم.

بين المتحف والآثار الفنية

ثم نزلتُ لوداع الأستاذ سحاب فأجلسني في مكتبه وزوَّدني بمعلومات شائقة عن القسم المصري في معرض البينالي (الثنائي) في فينسيا، وطُفت معه في بعض أرجاء الأكاديمي

عائلة إيطالية في الطريق، بريشة عبد السلام علي نور.

ومكاتبها، وألقيت نظرة على الدهاليز وغرفة نوم الأستاذ، وقد غُطِّيَتْ جدرانها بالعشرات من اللوحات الفنية التي تخرجها ريشته، وإلى جانبها المكتبة الحاوية أهم كتب الفنون الحديثة وتاريخها ودائرة المعارف الإيطالية.

وخرج بي إلى الحديقة التي عُنِي بتنسيقها وغراسها وتزيينها بالتماثيل المختلفة من صنع الطلبة المصريين، وإلى جانبها قطع من آثار تريانو، فصار الداخل إليها يُحِسُّ بأنه في معهد فني، ويزيد المصريين بهجة واعتزازًا علَمنا الأخضر الخفَّاق على ذاك القصر المحاط بالآثار.

وأبى الأستاذ إلا أن يوصِّلَني بسيارته إلى حيث أريد، فكررتُ الشكر له عمَّا غمَرني به من عطف وإكرامٍ وضيافة.

وخرجت مع الطالبَيْن عبد السلام ونظمي الجاولي عضو بعثة كلية التجارة في باريس، إلى بارك أوبيو وفيه قهوة ظليلة قال لي عبد السلام إنها قهوة الأطلال، وفي جوانبها يحلو ليلًا تناجي أهل العشق والغرام.

الدوبولافورو وأشياء أخرى

الدوبولافورو تنظيم فاشيستي بديع، قصد به الدوتشي حماية وقت الفراغ والانتفاع به لتجديد قوى العامل الذي يقوم على كتفيه الإنتاج العام.

فالعامل الإيطالي مهما تكن درجة تربيته ومحصوله العلمي والأدبي، يخرج من عمله متعبًا منهوك القوى. وكان قبل تنظيم حركة الدوبولافورو يقضي وقت فراغه إما في الحانات، أو في الاستسلام للكسل والنوم.

الدوبولافورو وأغراضه ومقاصده

أما اليوم فإنه بفضل هذه الحركة يمكنه أن يرقى معلوماته، ويكمل دروسه ويقوي جسمه بإحدى الوسائل الثلاث التي يحققها الدوبولافور وهي:

(١) التعليم الفني، والثقافة الشعبية.
(٢) التدريب الجسماني.
(٣) المساعدات الاجتماعية والصحية.

ووسائل القسم الأول هي المرسح والسينما والراديو والمكتبات.

فقد أُلِّفَتْ ١٠٦٦ جمعية تمثيل بَنَتْ ١٢٢٧ مرسحًا يشتغل بها ٢٦ ألف ممثل، وقد مثلت في السنة الماضية ٢٦ ألف قطعة.

وأقامت نحو ٧٠٠ دار للسينما تُعرض فيها أفلام تهذيبية وفنية وصناعية، وتعطَى للأعضاء تذاكر دخول إلى جميع سينمات إيطاليا بأثمان مخفضة.

وأنشئت مكتبات عامة للأعضاء يطالعون فيها الكتب والمجلات، وشُرِع في تسيير مكتبات وأتوبيسات تطوف في القرى والكفور ويَقترض منها القراء ما يريدونه من المطبوعات، ويردُّونها عند عودة الأتوبيس إلى بلادهم.

وتمكنوا من اجتذاب الطبقة العاملة في جميع أنحاء إيطاليا إلى فروع الألعاب الرياضية، وتجديد الألعاب الرومانية القديمة.

ونُظِّمَتْ رحلات إلى الضواحي القريبة للتمتع بجمال الطبيعة وزيارة الآثار والمؤسسات الصناعية.

ووُقِي العامل في أحسن حالة صحية وعقلية وخلقية، وأُحِيطَ بجو هادئ وحالة استقرار دائمة.

معرض الدوبولافورو

وعني المركز العام للدوبولافورو بإقامة معرض للتعريف بجهوده ودعوة العمال والمستخدمين والزُّرَّاع إلى الاستفادة من هذه الحركة الاجتماعية.

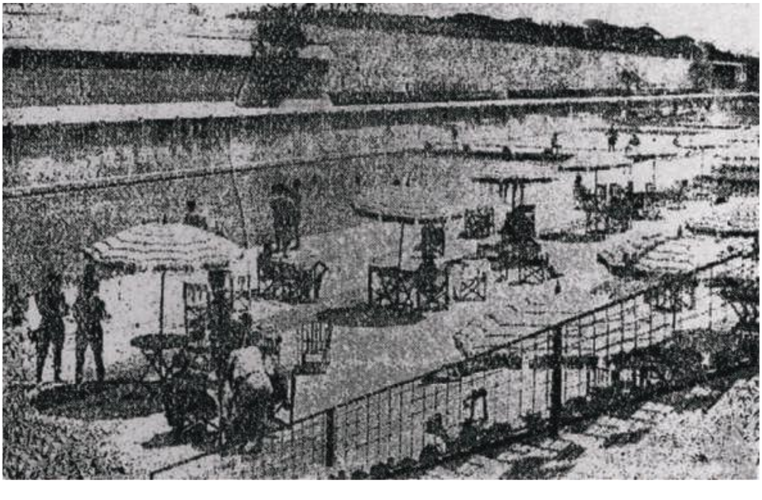

حوض السباحة وسط المعرض.

وفُتِح المعرض في أرض المعارض إلى جانب الكولوسيوم، وتوصل إليه قطارات الترام من محطة سكة الحديد والأتوبيسات من جهات أخرى.

والمعرض في إجماله وتفصيله قطعة فنية علمية بديعة.

الأزهار والأنوار وأحواض السباحة وميادين الزحلقة والبولو والقهوات والمطاعم تملأ وسط المعرض. وفي الصدر قاعة واسعة للسينما ومكاتب الإدارة. وإلى جانب الداخل قسم للاستراحة جُهِّزَ بأَسِرَّة للنوم ومقاعد طويلة من القماش ودوشات ومغاسل وصالون للحلاقة ودورات مياه.

ومكتب مؤتمر «العمل والسرور» الدولي الذي عُقِدَ منذ أربعة أشهر، وفيه عدة صور فتوغرافية تبين مدى انتشار هذه الحركة التي نشأت في ألمانيا، وأخذت البلاد الأخرى في اقتباسها منها.

وقضيت نحو ثلاث ساعات متنقلًا بين أقسام المعرض، ورأيت كل ما يشوق ويروق من مراكز الدوبولافورو والعشش القروية المصنوعة من جزوع الخشب والخيام التي تحوي سريرين وخزانة وفنوغرافًا.

ثم الفنون الشعبية والحياة القروية، والمراسح المتنقلة والثابتة، والأندية العامة والحانات التي تُلقَى فيها القصائد والمواويل والقصص.

وغرفة إسعاف طبي في ملعب رياضي.

وكتب ورسائل في الإسعاف، وأدوات إسعاف، وأعشاب طبية نافعة، وخيمة للإسعاف في الجبل، وإسعاف الطيارين، وحمامات على شاطئ البحر، وتزيين الشبابيك بالزهر.

وأشغال يدوية أهليَّة للتسلية وقت الفراغ، وفيها مصنوعات من الخشب والنسيج والرسم.

والتربية بالسينما، وتعليم النسخ على الآلة الكاتبة.

وبيانات وإحصائيات عن الإيطاليين خارج بلادهم، وما لهم في كل قطر من مؤسسات الدبولافورو وفروعه ... إلخ إلخ.

وإذا كان المقصود بالمعرض الأوغسطي دراسة التاريخ والمدنية القديمة؛ فإن الغرض من معرض الدوبولافورو هو الإعلان عمَّا وصلت إليه الحركة في سنواتها القليلة، وفيها درس نظري للأمم والجماعات التي تريد الاقتباس من هذا النظام المفيد بحسب ما يوافق كل بلاد وحالتها المدنية والطبيعية.

عائلة قروية تتلهى بالموسيقى.

في وزارة تربية الشعب

ولم يكن في الوقت سعة لغير زيارة بعض الأصدقاء.

فترددت غير مرة على وزارة تربية الشعب وقابلت الأستاذ سليم قطان، وهو الشاب البيروتي المثقَّف الذي أحرز ثقة الدولة الإيطالية، فعيَّنته مستشارًا لوزارة تربية الشعب، وإليه يرجع الصحافي العجوز وغيره من رجال الصحافة الأجنبية عامَّة والصحافة الشرقية خاصة، فيجدون منه خير مرشد ودليلٍ لتحقيق مقاصدهم وإرشادهم إلى كل ما يريدون.

وقد تفضل فقابلني بالأستاذ يحيى شريف اللبابيدي.

والأستاذ اللبابيدي شاب في الرابعة والعشرين من حياته دمشقي المولد والنشأة، درس مبادئ اللغة الإيطالية في بلده، وعشق الصحافة صغيرًا، ويشتغل الآن بمكاتبة

صحيفتين سوريتين، ويكتب فصولًا في الشئون الشرقية للصحف الإيطالية الكبرى، ويسعى للاتصال ببعض صحفنا المصرية لمراسلتها.

على مائدة صديق عزيز

وتناولت العشاء على مائدة الأستاذ يحيى حقي، قنصل مصر في روما بالنيابة، وهو الشاب الأديب المغرم بالتحرير والتحبير، الذي لا يلذُّ له غير حديث الصحف والمجلات والأدب والأدباء.

وبعد العشاء قدم إلينا الأستاذ أحمد حلمي إبراهيم، أمين محفوظات المفوضية، وخريج كلية الآداب بالجامعة المصرية.

وللأستاذ حلمي عناية خاصة ببحث الشئون الاجتماعية وحركة العمال، فوعدني بتقرير له عن الدوبولافورو، وهو بحث شائق دقيق استعنت به على ما كتبته في هذا الموضوع.

ويشتغل الآن بتجهيز ثلاثة تقارير:

الأول: في مجهودات إيطاليا في إصلاح حالة العمال عامة، والنساء خاصة.

الثاني: التأمين الإجباري للعمال وضمانتهم من مصائب الشيخوخة والمرض.

الثالث: شرح تام مفصل لمعرض الدوبولافورو.

وختمت أيامي في رومة بزيارة المفوضية والقنصلية المصريتين مقدِّمًا تحيتي للأستاذ حسني عمر بك سكرتير المفوضية، وشكري للإخوان الموظفين على ما حَبَوْني به من رعاية وعطف.

الفصل الحادي والعشرون

في فلورنسا وفنيسيا

برحت روما في الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت ٢٠ أغسطس قاصدًا إلى فلورنسا. والمسافة بين البلدين بالقطار السريع أربع ساعات تامة. وفلورنسا مدينة الآثار والفنون، بل هي متحف كلها بما فيها من كنائس وأديار ومعارض دائمة ووقتية للصور والتماثيل، ناهيك بما في ساحاتها وشوارعها من أنصاب وآثار.

وفندق ماجستيك على بُعد خطوات من المحطة، وساحة فيكتور عمانوئيل ليست بعيدة عن الفندق، وفيها أكبر قهوات البلد وباراتها ومطاعمها وفنادقها، وفي أحدها جوقة موسيقية تعزف عصرًا وليلًا، فتمتلئ القهوة بالسماع ويقف إلى جانبهم مئات من الأهالي في هدوء وسكينة لتشنيف آذانهم بالأنغام الشجية.

بين الكاتدرائية والمتاحف

وكان العشاء والسهر ثم استيقظتُ مبكرًا، وقصدت إلى الكتدرائية لحضور القداس، فلم أجد غير المئات من ألمان وإنكليز وقف بعضهم أمام الواجهة الساحرة، وأخذ البعض يتجول في أنحاء الكنيسة ويصحب كل فريق منهم مرشد خبير يشرح لهم ما هنالك من دقائق فنية، فتجولتُ معهم.

ثم خرجت وسِرْتُ راجلًا إلى ميدان السنيوريا، وهو متحف في الشارع بوفرة ما فيه من التماثيل العظيمة.

ولا غرابة في أن يكون متحفًا وهو مدخل متحف من أشهر متاحف الصور والتماثيل في العالم، وأعني به متحف الأوفيشي الذي يتعب السائر في قطع دهاليزه وغرفه ويضل في جوانبه.

ميدان السنيوريا وتماثيله الفنية.

وقد نعمت بزيارة هذا المتحف غير مرة منذ سنة ١٩٢١، ولكنني لا أزال مغرمًا بالطواف فيه والإعجاب بما يحويه.

ومن الأوفيشي إلى الكوبري القديم الغريب بناؤه، وما على جانبيه من مخازن ودكاكين مشرِقة بما فيها من المصنوعات الفنية القديمة والحديثة، وما على مدخليه من باعة قطع الأنتيكة من خشب ورخام ونحاس.

ولكن عطلة الأحد حرمتني من هذه المشاهدة، إذ كانت المخازن مقفَلة والتجار في راحتهم الأسبوعية.

واجتزت الكوبري إلى متحف الفن الحديث ومتحف بيتي، وفيه صور قديمة وآثار مصرية ومجموعة من البرونز والصيني والأثاث الفني البديع.

وهكذا انقضى نصف النهار وسط تلك المعاهد التي لا نزال محرومين منها في بلادنا.

في متحف بيتي: صورة كليوباطرة.

في مدينة فينسيا

ومن فلورنسا بالقطار السريع إلى فينسيا، المدينة الفريدة في العالم بأنها لا تدخلها سيارة ولا عربة ولا موتوسيكل، وتقوم فيها الجندولات بنقل الركاب والبضائع وسط الأقنية والروافد، فإذا أنت أردت أن تقطع المدينة راجلًا فأمامك الطرق والأزِقَّة المتلوية تسير على جانبي الماء وتجتازها فوق الكباري الصغيرة والكبيرة.

مناظر جديدة في فينسيا

والجندل أو الجندلة عنوان فينسيا لم يكن البلد يعرف غيرها، أما الآن فقد زاحمتها اللنشات الكهربائية التي تأنَّقُوا في صناعتها وفرشها بمقاعد الجلد الوثيرة للنقل في القنال الكبير وأطراف فينسيا وضواحيها بأجور زهيدة.

وهناك ظاهرة جديدة لاحظتها في المدينة، هي نشوء بعض عمارات حديثة من الطراز الساذج، أرجو ألَّا يكثر عددها حتى لا تتلف منظر العمارات القديمة ذات الجمال الفني الفتان والطابع الذي اشتهرت به بلد الدوجات والجنادل.

في ساحة القديس مرقس

وكانت الجلسة التي لا بد منها مساء في ساحة سان مارك أو القديس مرقس البشير الذي زرع مبادئ النصرانية في مصر وشمالي أفريقيا وقتله آباؤنا الوثنيون شر قتلة.

وقد طمع البنادقة في عظام الشهيد فاستلوها من مقبرته ووضعوها في لفافة دهنوها بشحم الخنزير ونقلوها من الإسكندرية إلى فينسيا، وبنوا لها الكتدرائية المعدودة من بدائع الفن البيزانطي في العالم.

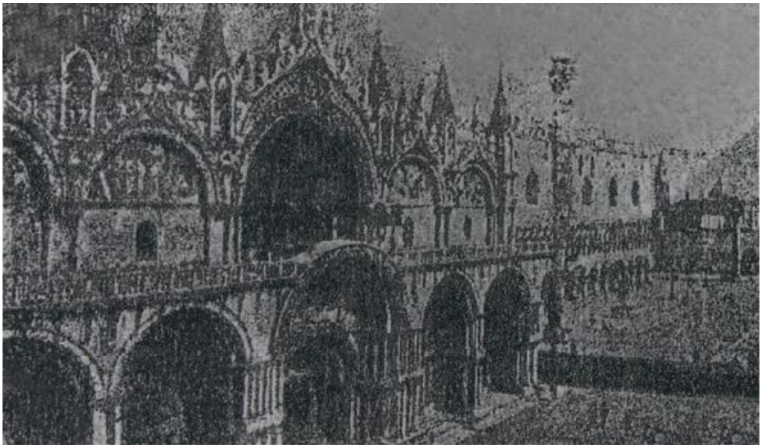

واجهة كاتدرائية القديس مرقس.

وساحة القديس مرقس تحفل النهار بطوله بأسراب الحمام الأليف الذي يتناول الحبوب من أيدي الكبار والصغار بلا خوف ولا جزع.

وتحيط بالساحة البوائك العامرة بالقهوات والبارات وباعة الحلوى وتجار الصور والتحف الفنيسية، وأخصها الدنتلا والبلور، وتزدحم النهار بطوله بالألوف من أهالي البلد وجماعات السياح.

حفلة موسيقية في الساحة

فإذا ما غابت الشمس، أشرقت أنوار الكهرباء الساطعة وظهرت تلك الأندية الصغيرة بأجمل منظر من الموائد ذات الأغطية البيضاء المهفهفة والجلاس من الجنسين، وقد لبست الكثيرات من السيدات ملابس السهرة، والموسيقات هنا وهناك تشنف الآذان بأطيب الألحان.

ومن المصادفات الطيبة أنه أقيمت ليلة وصولي إلى مدينة قديسنا العظيم حفلة موسيقية عظيمة وسط الساحة، واشترك فيها نحو خمسين موسيقيًّا عزفوا أشهر الأوبرات ومنها أوتللو وفاوست.

مع الشاعر علي محمود طه

وفي ضحى اليوم التالي قابلني في الساحة الأستاذ المهندس الشاعر علي محمود طه.

قال: لقد وصلتُ أمس من مصر مع صديقك الأستاذ محمد عبد الله عنان.

قلت: وهل هذه أول مرة تأتي فيها إلى أوروبا؟

قال: نعم ولا، فقد زرت قبلًا بلاد اليونان، ولأول مرة أزور إيطاليا، وقد كفتني الساعات القليلة التي قضيتها في فينسيا أن أدرك ما وصل إليه القوم من تفنن وإبداع في التصوير والهندسة؛ فقد زرت كنيسة القديس وزرت قصر الدوجات، وتبينت أن هناك صلات فنية وثيقة بين الفن البيزنطي في الكنيسة والفن العربي في قصر الحمراء بالأندلس، وعند عودتي إلى مصر سأُعنى بدراسة الموضوع.

قلت: على أن يكون ذلك مصحوبًا بزيارة إستانبول وإجالة النظر في جامع أجيا صوفيا والتأمل في نقوشه التي كشف عنها أحد علماء الأمريكان.

ثم أرشدته إلى زيارة متحفي الفنون القديمة والحديثة في فينسيا، وصحبته إلى زيارة بعض أسواق المدينة.

وكان لا يعلم شيئًا عن المعرض البينالي واشتراك مصر فيه، فأبلغته خبره، واتفقت معه على زيارته بعد الظهر.

الفصل الثاني والعشرون

في المعرض البينالي

هو المعرض الدولي العام الذي تقيمه إيطاليا في مدينة فينسيا، لعشرين سنة خلت، مرة كل سنتين؛ ليعرض فيه الفنانون من أنحاء العالم عامة منتجات خيالهم وآثار أيديهم من تصوير وحفر وزخرف.

الدول المشتركة في المعرض

واشترك فيه هذه السنة فنانون من الدول الآتية، وهي: إيطاليا، بلجيكا، تشكوسلوفاكيا، الدانيمارك، مصر، فرنسا، ألمانيا، بريطانيا العظمى، اليونان، يوجوسلافيا، هولانده، بولونيا، رومانيا، إسبانيا، ولايات أمريكا المتحدة، السويد، سويسرا، هنغاريا.

الكتالوج الفني للمعرض

ونشرت إدارة المعرض كتالوجًا فنيًّا للمعروضات في ٤٠٠ صفحة متوسطة، فصَّلت فيها معروضات كل دولة على حدة.

وفي كل فصل بيان تمهيدي لقومسير القسم، يليه أسماء العارضين وبيان معروضاتهم.

ثم جدول شامل لأسماء العارضين وأرقام الصفحات المبيَّنة فيها معروضات كل منهم.

ويلي هذا الجدول قسم مصور (مطبوع على ورق صقيل)، يحتوي على نماذج من أهم المعروضات في ١٥٤ صفحة مذيَّلة بأسماء أصحاب المعروضات المصورة.

في القسم الإسباني: السيدة العذراء مريم والقديس يوحنا.

اشتراك مصر في المعرض

وللمرة الأولى تشترك مصر في هذا المعرض.

فتألفت برعاية وزير المعارف لجنة لانتخاب الصور والتماثيل، قوامها الأساتذة أصحاب العزة محمد محمود خليل بك رئيس مجلس الشيوخ، وكامل عثمان غالب بك وكيل وزارة الأشغال العمومية، وأحمد راسم بك محافظ السويس، والمسيو جورج ريمون مراقب الفنون الجميلة في وزارة المعارف.

وقضت هذه اللجنة أيامًا في البحث والاختيار والانتخاب، إلى أن أعدت مجموعة طيبة تمثل عمل الفنانين المصريين خير تمثيل.

من معروضات القسم المصري: العواد (صورة للأستاذ أحمد صبري).

وقررت انتداب الأستاذ سحاب رفعت ألماس، قومسيرًا للقسم المصري في المعرض، فأشرف — وهو في مصر — على إعداد الصور وشحنها بمساعدة الأستاذ راغب عياد، ثم سافر إلى فنيسيا وعني بترتيب المعروضات وتنسيقها في الجناح الخاص بها في المعرض.

كتالوج فني للقسم المصري

ونشر كتالوجًا خاصًّا للمعروضات باللغة الإيطالية، صدره بأسماء أعضاء اللجنة، وكتب له مقدمة، ألمع فيها إلى الدور القديم الذي لعِبته مصر في الفنون الجميلة والنهضة

الحديثة، وقال إن مصر أرادت بالاشتراك في البينالي أن تعرف الملأ الفني مركز الفنانين المصريين الحاضرين، ووجهة نظر كل منهم.

قال: وهؤلاء الفنانون هم أبكار المدرسة المصرية الحديثة، وهناك كثيرون غيرهم، ولكن المكان الذي أُعِدَّ للمعرض لم يتسع لمنتجات عقولهم وأيديهم.

ويلي المقدمة صفحات خُصِّصَتْ كل واحدة لنبذة وجيزة عن كل من العارضين وهم الأساتذة المصورون والحفارون والخزافون محمود مختار (رحمه الله)، ومحمود سعيد بك، ومحمد ناجي، وراغب عياد، وأحمد عثمان، ولبيب تادرس، وحسين محمود فوزي، ومنصور فرج منصور، وعلي كامل الديب، والسيدة داريا جمسرجان.

ثم جداول بأسماء المعروضات، مقسمة تقسيمًا فنيًّا بأسماء العارضين وعددهم ١٦ فنيًّا، ومعروضاتهم وعددها ٨١ قطعة بين صورة وتمثال ولوحة زيتية، وباب من الحديد المطروق لتلاميذ مدرسة الفنون التطبيقية بالجيزة.

ويلي الجدول قسم مصور، مطبوع على ورق خاص، نُشِرَتْ فيه صور لنماذج من المعروضات المختلفة.

وقد نشر الكتالوج — ما عدا صفحات التراجم — في الكتالوج العام للمعرض.

وحرص الأستاذ ألماس على مال الدولة الذي عُهِدَ إليه في صرفه على نقل المعروضات وعرضها، فلم يتجاوز كل ما صرف على هذه العملية وعلى ذاته في تنقُّلاته وإقامته في فينسيا إلا مبلغ ١٥٠ جنيهًا، أرصدها في جداول مدعمة بالمستندات لكل ليرة صرفها.

وبعد أن حضر الأستاذ سحاب حفلة الافتتاح رأى أنه لا حاجة له بالبقاء في فينسيا، فسلم القسم المصري إلى الإدارة العامة للمعرض، وعاد إلى عمله في روما، وأخذ يتردَّد على فينسيا لمناسبات خاصة مثل زيارات حضرة صاحب الجلالة ملك إيطاليا وحضرة صاحبة الجلالة الملكة نازلي وصاحبات السمو الأميرات الملكيات المصريات للمعرض.

فضل الأمير يوسف كمال

وليس يصح أن يذكر هذا المعرض أو غيره من المؤسسات الفنية والمعارض بدون ترديد آيات الشكر والثناء على حضرة صاحب السمو الأمير الجليل يوسف كمال، واضع أساس النهضة الفنية في مصر لثلاثين سنة خلت بأن أنشأ مدرسة الفنون الجميلة وأرصد للإنفاق عليها مبلغًا كبيرًا من المال وسلمها إلى وزارة المعارف لإدارتها، ولا يزال — أطال الله حياته — ينفق على هذه المدرسة وإرسال البعوث من الطلبة المصريين إلى أوروبا لإتمام ثقافتهم الفنية.

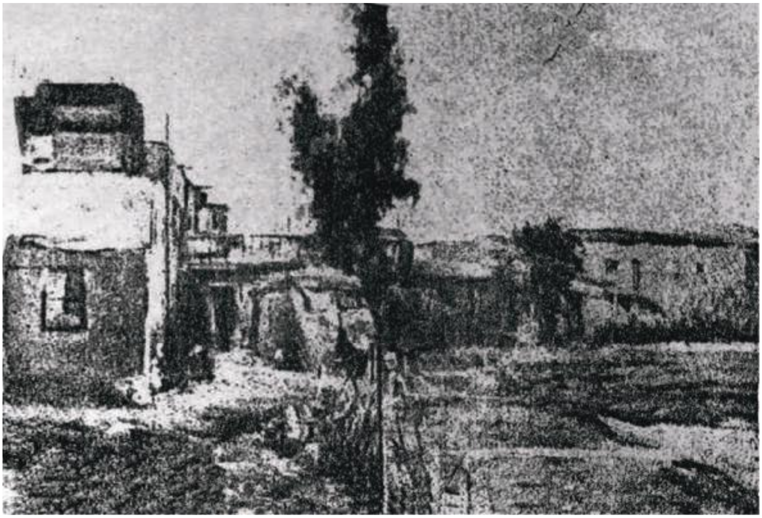

من معروضات القسم المصري: قرية مصرية (صورة للأستاذ لبيب تادرس).

جولة في المعرض

والمعرض البينالي مقام في أحد أطراف فينسيا يمكن الوصول إليه مشيًا على الأقدام، أو في اللنشات.

ففي الموعد المتفق عليه مع الأستاذ طه ركبنا اللنش وقصدنا إلى المعرض مجتازين الرصيف والحدائق، وبدأنا الطواف بالقسم الإسباني البورتغالي.

وعمد الأستاذ طه إلى الكتالوج الكبير باحثًا عن اسم هذا الرسام وذاك الحفار وهذه الصورة وذاك التمثال وطفق يطيل النظر في كل قطعة، فنبهته إلى أن الوقت يذهب قبل أن ننتهي من قسم واحد، ولكنه تشبَّث برأيه ثم عجز عن الاهتداء إلى غرضه في الكتالوج فطواه وسايرني مسرعًا إلى القسم الإيطالي، وفيه قابلنا رئيس قسم الصحافة، فتكرم عليَّ بالكتالوج الكبير وكمية من الفتوغرافيات للمعروضات.

والقسم الإيطالي واسع طويل المماشي كثير القاعات، فاكتفينا بالمرور به وإلقاء نظرات سريعة على بعض محتوياته.

في القسم المصري: فتاتان مصريتان (تمثال للأستاذ أحمد عثمان).

وخرجنا منه إلى القسم المصري، والظاهر أن الأستاذ طه لم يكن له علم بأعمال فنانينا ففتح الكتالوج الخاص وشرع في التأمُّل والتحديق بكل قطعة.

وزرنا القسم الأمريكي (الولايات المتحدة) وقسم بلجيكا، وأعجبنا في قسم بولونيا بالحفر على الخشب، وأدهشت الأستاذ طه معروضات فينسيا في قسم الزخارف.

ولاحت على الأستاذ علامات التعب والإفلاس في مماشاة الصحافي العجوز، فقال: بزيادة بقى يا صديقي! قلت: جرى إيه؟ قال: تعبت. قلت: والنظريات الدقيقة والبحث الفني؟ قال: غدًا إن شاء الله!

وتناولنا الشاي في قهوة قريبة من القسم المصري، ثم عدنا إلى ساحة القديس، وافترقنا للعشاء.

وكان في النية قضاء السهرة في كازينو الليدو، ولكنا عدلنا عنها للتعب فساهرت الأستاذ في فندقه، وودَّعته في الساعة الحادية عشرة.

وفي الطريق جذبتني قهوات سان مارك وموسيقاها، فكانت جلسة إلى منتصف الليل.

الفصل الثالث والعشرون

من فينسيا إلى أباتسيا

صباح يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس، اللنش الكهربائي يقل الصحافي العجوز من الفندق إلى محطة السكة الحديد مجتازًا القنال الكبير وعمارته الأثرية، ولكل عمارة ولكل حجر تاريخه، وأخصها جسر التنهُّدات الذي يصل بين قصر الدوجات والسجن.

وقد عرف القصصي ميشيل زيفاكو كيف يقص خبره وحسرات من يتخطونه من التعساء الذين يُحكم عليهم بالسجن أو الموت في تلك الحجرات السوداء.

ولم يكد القطار يسير كيلومترات حتى تجلى العالم الآخر: طريق السيارات الذي أنشأه الدوتشي موسوليني. والسيارات والموتوسيكلات والدراجات والعربات وغيرها من أدوات النقل القديم والحديث، كان الله قد أراحنا من مشاهدتها في مدينة القنالات والجوندولات.

ساعات في تريستا

والقطار سريع، لم يقِف إلا في المحطات الكبيرة حتى وصل إلى تريستا: الميناء النمسوية العظيمة التي صارت من نصيب ألمانيا بعد الحرب. فأقفل باب البحر أمام النمسا، وأصبح لإيطاليا أكبر مرفأ من مرافئ الأدرياتيك.

ومدينة تريستا من مدن السواحل التي يمر بها المصطافون المصريون سراعًا، وينزل إليها خاصة القاصدون حمامات النمسا والتشكوسلوفاكيا.

وقد نزلت بها منذ ١٨ سنة، ولكني لم أتجاوز ساحة الأونيتا أكبر ميادين تريستا وأوسعها، وتبلغ مساحتها ١٦ ألف متر مربع، وتحيط به العمارات الشائقة والأندية العامة ومكاتب السياحة ودار اللويد ترستينو والبلدية التي شيدت في القرن السادس عشر وجددت سنة ١٨٧٤ وسراي بيتري، وغيرها.

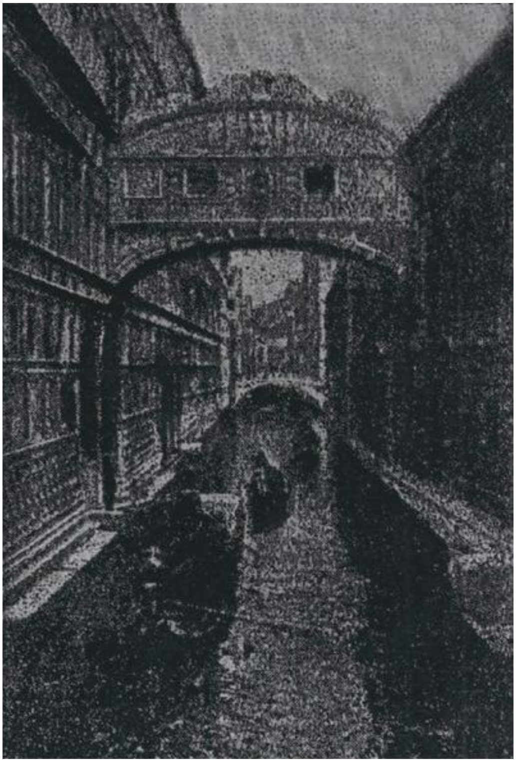

جسر التنهدات.

جولة وغدوة مع صديق عزيز

وقد امتازت زيارتي لها هذه المرة بمقابلة الصديق العزيز الأستاذ أحمد رمزي قنصل مصر في تريستا الذي نُقِلَ إلى طهران.

والقنصل الشاب عرفتُه طالبًا في سويسرا سنة ١٩٢١ ورأيته في إستانبول سنة ١٩٣٢، فأدلى إليَّ حينذاك بمعلومات عن حالة تركيا، أدركت منها كيف يُعنى بدراسة شئون كل بلد ينزل إليها.

واستقبلني في مكتبه بقنصلية تريستا بما هو معروف عنه من أدب وكياسة، وقدمني إلى موظفي القنصلية الأستاذ عبد المنعم، والأستاذ لطف الله.

وكان موعد الغداء قد حلَّ، فأكلت معه في مطعم الكاستلو، وقضينا نحو ساعة في التجول ببعض أنحاء المدينة القريبة من البحر ومحطة سكة الحديد، وفيها العمارات القديمة والمباني الحديثة والفترينات الزاخرة بصنوف البضائع.

ودخل بي مكتبة انتقى منها بعض المؤلَّفات، ومنها إلى قهوة تناولنا فيها الشاي.

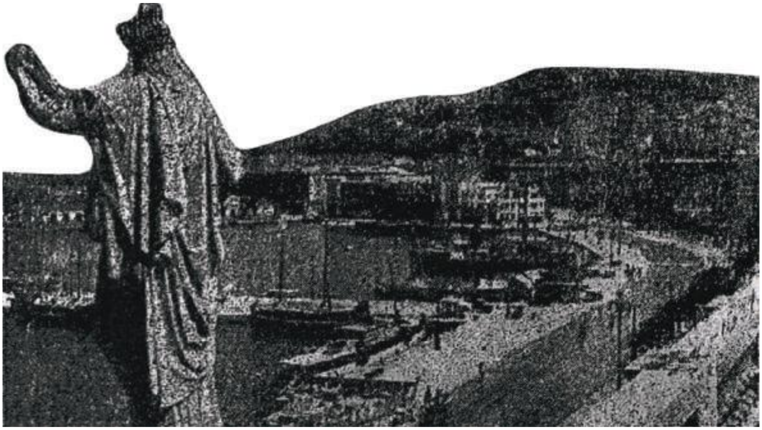

منظر عام لمدينة تريستا.

ولم يفتُر عن الإفاضة ببيانات طريفة عن المدينة وماضيها وحاضرها وحركتها المالية والبحرية، وما أدخله فيها الطليان من تغيير وتبديل. ووصف لي الكثير من أحيائها الداخلية وأرباضها وما فيها من قصور ومتنزهات وأخصها قصر ميرامار والقلعة ومغارة بوستوميا.

قال: وسيكون للاتفاق الإيطالي الألماني أثره المباشر في فتح ميناء تريستا وثغر فيومي للسفن الألمانية. وقد شرعت إحدى شركات الملاحة الألمانية في إعداد خط منظِّم للسير بين تريستا والإسكندرية.

وحدثني كذلك عن الحركة العربية الصهيونية في فلسطين، وكيف درسها لَمَّا كان قنصلًا لمصر في القدس، وأدهشني بمعلوماته عن علاقتنا بهذا القطر الشقيق، ووصف لي بعض المستعمرات الصهيونية وأخصها مستعمرة كومونية قريبة من القدس.

وأراني في الطريق مدرجًا أثريًّا، قال إنه مرسح روماني قديم كُشِفَ عنه عند هدم أحد المباني لتجديدها وتوسيع الطريق، وسيحيون التمثيل فيه كما فعلوا في روما وسيراقوزة وغيرهما.

وودَّعته في القنصلية في نحو الساعة السادسة قاصدًا مصيف أباتسيا بسكة الحديد عن طريق فيومي.

بين تريستا وفيومي

وفيومي هي الثغر النمسوي المعروف الذي نزل إليه الشاعر الضابط الباسل جبرائيل دانونزيو واختطفه لقمة سائغة من النمسا، بالرغم من أنف الدول، وسد بضمه إلى إيطاليا آخر منفذ بحري لدول الوسط.

وأرخى الليل سدوله، فمنع الظلام من التمتُّع بجمال الطبيعة في هذه المنطقة الإيطالية النمسوية.

وأخذ القطار يتنقَّل من محطة إلى أخرى، منها الكبيرة ذات الحركة والصغيرة التي تضيئها لمبة بترول.

وفي خلال الطريق، تساءلتُ عن المسافة بين فيومي وأباتسيا، فاختلفت الإجابات من قائل إنها بسكة الحديد ولكن بين محطتها والفنادق مسافة، إلى قائل إن هناك أتوبيسات بين فيومي وأباتسيا، وانتهى الأمر بأن قررت المبيت في فيومي.

ومن المحطة إلى الفندق الصغير.

ليلة في فيومي

وكانت الساعة العاشرة مساء، ولكنهم أحضروا لي العشاء الساخن والفاكهة الجَنِيَّة والنبيذ الخفيف.

وكانت هناك جازباند تلطش تطبيلًا وتزميرًا من النشاز الأصلي باحثة عن راقصة أو راقص، ولا حياة، فلمَّت عزالها وذهبت إلى حيث.

وكان لا بد من النوم، فالاستيقاظ الساعة السابعة صباحًا حسب العادة، والسؤال عن مركز أتوبيسات أباتسيا، فقالوا إنه في الميدان على بعد خطوات من الفندق.

ساعات في فيومي

وفي الميدان وجدت قهوة فيها الشاي والكيك والجيلاتي وصبايا ملاحًا يقُمن بالخدمة، فحططت رحالي، وتركت عندهن الحقيبة الصغيرة وتجولت في الأحياء القريبة من البحر فشهدت السفن الشراعية، وقد أنزلت إلى الأرصفة حمولتها من البطيخ والعنب والخضر والمقاتي والثوم والبصل.

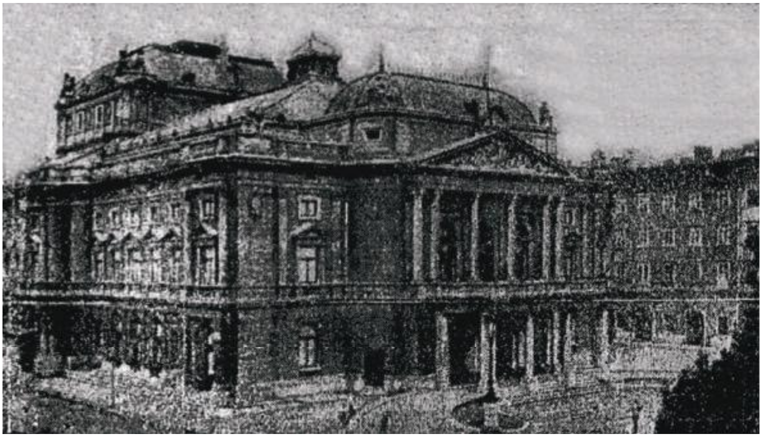

التياتر الكبير في فيومي.

والطابع النمسوي متجلٍّ ظاهرٌ في الشوارع العظيمة والبوائك والأندية والمطاعم والحانات الصغيرة والكبيرة وأكشاك الصحف وانتشار الجرائد الألمانية والنمسوية في الأيدي.

وكفتني ساعةٌ لتعرُّف بعض ما في المدينة من مظاهر العِزِّ القديم والحركة التجارية البرية والبحرية.

ثم ركبت الأتوبيس الذي يسير أربع مرات في النهار بين فيومي وأباتسيا، ويقطع المسافة في عشرين دقيقة مجتازًا شوارع فيومي الواسعة وأرباضها الزاهية بحدائقها وفيلاتها وقصورها وقهواتها البحرية وكازيناتها، ثم يسير وسط المروج حتى يصل إلى أباتسيا.

الفصل الرابع والعشرون

بين أباتسيا وروما

أباتسيا أو أبازيا أو أباظية أو عباسية.

الْفظها واكتبها كما تريد، وكما تشاء.

مدينة ساحلية، وبلد حمامات بديعة أخذها الطليان ممَّا أخذوا من بلاد النمسا والمجر بعد الحرب الكبرى.

عُنِي النمسويون بتجميلها وتحليتها، فشقوا فيها الشوارع الواسعة والميادين البديعة وزيَّنوها بالحدائق والباركات، وأقاموا وسطها الفساقي والنوافير، تتدفَّق منها المياه الصافية نهارًا، والمياه الممزوجة بالأنوار المختلفة ليلًا.

مدينة الفنادق والحمامات والموسيقى والرقص

لكل واحد من الزبائن الفندق الذي يوافقه.

فهناك نحو مائة فندق غير الشقق والغرف المفروشة والبانسيونات. ومن الفنادق العائلي البسيط الذي ينام أهله بعد العشاء، ومنها الفندق الكبير الذي لا تهدأ حركته من الساعة العاشرة مساء إلى الثانية صباحًا: الرقص على أنغام الجازبند الهائج المهيج والأنوار التي تخطف الأبصار.

وأكبر هذه الفنادق فندق كورنارو على ساحل البحر وسط حديقة واسعة تنتهي بحمام بحري مترامي الأطراف، وفي الحديقة مجال للرقص تقام فيه حفلتان إحداهما مسائية والأخرى ليلية، لا يفصل بينهما إلَّا العشاء وتغيير الملابس وارتداء السواريه الكاشف عن جمال الجسم وتقاطيعه.

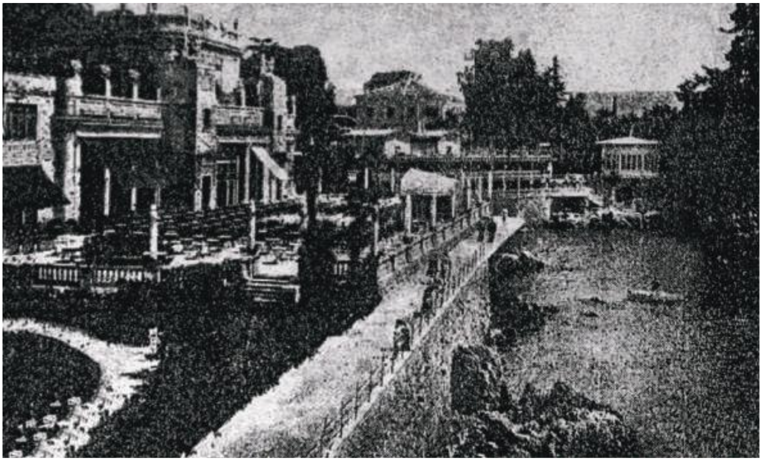

كورنيش أباتسيا وحماماتها البحرية.

وفي ناحية غير بعيدة عن حومة الرقص كنيسة صغيرة، حِرْتُ في تكييف مكانها من الإعراب، ولم أدرِ هل لها عباد خاصون يأتون إليها من الخارج؟ أم أنشأها أصحاب الفندق ليتمم فيها النزلاء الكرام الغرض المأثور «ساعة لقلبك، وساعة لربك»؟

وعلى طول الشارع ترى القهوات والبارات بين صغير وكبير وحمامًا واسعًا وأكشاكًا للجرائد والمجلات والكتب، ومعظمها من واردات برلين وفينا وبراج.

وتكاد البلد تكون نمسوية في كل شيء: في ضيوفها وأهلها وحديث تجارها ومديري فنادقها وجرسونات قهواتها.

وتتصل أباتسيا بفيومي وفينسيا وغيرهما من مدن شبه جزيرة أستريا بالسكك الحديدية والسيارات والطيارات والسفن.

يومان مع صديق مصري

وفي أباتسيا قابلت الشاب المحامي السري الأستاذ حشمت كيرلس، فكانت مصادفة طيبة.

قلت له: من أرشدك إلى هذه البلدة الحلوة؟

قال: سعادة علي حسين باشا، وقد راقته، فقضى فيها أسابيع أفادته فائدة صحية كبيرة.

وكان الأستاذ كيرلس خير أنيس لي وسمير في التردد على القهوات الموسيقية وقاعات الرقص بفندق البلفي الفاخر، وتركني بعد يومين.

وانتهزت فرصة وجودي في أباتسيا فخرجت مرتين إلى عُرض البحر في إحدى السفن البخارية التي تنتقل بين المدن الصغيرة المتراصَّة على جوانب البحر.

ونزلت في مدينة لوران، وهي مدينة أنيقة هادئة فيها كل ما يلذ ويطيب من فنادق متوسطة وبارات وقهوات تزينها مراكب الصيادين.

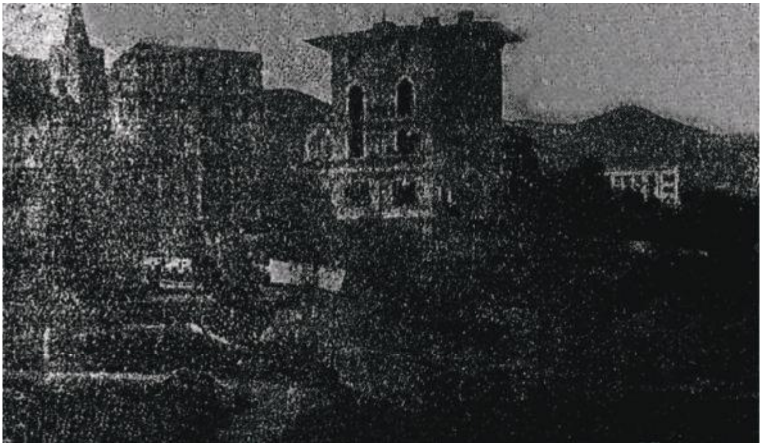

منظر عام لمدينة لورانا.

وكان بودي أن أبقى أسبوعًا في أباتسيا، ولكنَّ أسبابًا خاصة دعتني لمزايلتها بعد أربعة أيام.

فقد كان البروجرام المقرَّر للسير هو الذهاب إلى مارسيليا عن طريق ميلانو وجنوى والريفيرا الفرنسوية.

ثم طرأ ما دعا إلى تغيير الخطة بالعودة عن طريق تونس وطرابلس.

ويقضي هذا التعديل بالرجوع إلى روما.

والمسافة بين أباتسيا وروما تُقطع في ١٣ ساعة على الأقل، وليس في الجسم قوة لهذا المشوار الطويل.

اجتياز شبه جزيرة أستريا بالأتوكار

وكنت تائقًا لمشاهدة بعض بلاد شبه جزيرة أستريا، وهي لا تُرى في القطار. فركبت الأتوكار ضُحًى من أباتسيا إلى تريستة.

وعلى جانبي الأوتوسترادا المعبَّدة شهدت أشكالًا وألوانًا من المدن والقرى والعِزَب ومراكز الفاشزم والمروج تمرح فيها الدواب وتعمل الأيدي في إخراج الحاصلات، ووصلت إلى تريستا بعد ساعتين.

من تريستا إلى فلورنسا

ومحطة الأتوكار في تريستا إلى جانب محطة سكة الحديد.

ولم يكن هناك وقت يتَّسع للَّف والبرم. فعمدت إلى قهوة المحطة، ولا تزال حافظة لونها النمسوي برياشها الثمين وزخرفها الفني وزبائنها وصحفها.

وبرتفت فيها وكرزمت، وركبت القطار إلى فينسيا، ولكني لم أدخلها بل انتقلت منها إلى قطار آخر سارٍ إلى بولونيا، وكانت فيها نقلة ثانية إلى قطار سارٍ إلى فلورنسا فوصل إليها مساءً.

وكان العشاء في فندق الماجستك وتناول القهوة والمسامرة مع المدير السويسري وزوجته التي تَعُدُّ نفسها مصرية؛ لأنها وُلِدَتْ في الإسكندرية وخرجت منها عروسًا.

وكانت السهرة المعتادة في ميدان فيكتور عمانوئيل لسماع الموسيقى واليقظة المبكرة للسفر إلى روما.

أيام أخرى في روما

ولم يبق في روما شيء للزيارة أو المشاهدة.

ولكنني ترددت على وزارة الثقافة الشعبية، وقابلت فيها الأستاذ سليم قطان المستشار الشرقي ورئيس قسم الصحافة العربية الذي يعمل ليل نهار لخدمة رجال القلم وكُتَّابِ الصحف من المصريين والسوريين والمغاربة الذين يقصدون الوزارة، فيُسهِّل

لهم مطالبهم ويثقل كواهلهم بالمطبوعات، ويقدِّم إليهم كل ما يريدونه من تذاكر السفر بالأجور المخفضة.

مقابلات في وزارة الثقافة

وفي غرفة الانتظار بالوزارة قابلت الخوري أغناطيوس سعد الحلبي.

قال لي إنه قضى زمانًا غير قصير في المطرانية المارونية بشارع حمدي في الظاهر بالقاهرة.

ويقيم الآن في حلب ويصدر مجلة الشهباء، وكلفني تقديم تحيته إلى الأستاذ العالم يوسف شلحت بك والأب بولس سباط.

وفي مكتب الأستاذ قطان عرَّفني إلى شقيقة نيافة الأنبا باسليوس قطان الذي كان مطرانًا للروم الكاثوليك في بيروت، ثم عُيِّنَ رئيسًا لأساقفة مرمرة شرفًا.

وتشرفت بمقابلة القومنداتور نونس وكيل المدير العام لإدارة الصحافة الخارجية في وزارة الثقافة الشعبية، والرجل مثال الظُّرف والرِّقَّة، عمِل زمنًا في المفوضية الإيطالية بالقاهرة، وقد رقي أخيرًا مستشارًا في المفوضيات لجدارته وكفاءته وما عرفه في البلاد المختلفة.

ووزارة الثقافة الشعبية كانت معروفة قبلًا باسم وزارة الدعاية والصحافة، وهي من المؤسسات الفاشستية الحديثة، وتقوم منذ نشأتها بأعمال وخدمات لا تُقدَّر للدعاية لإيطاليا وخدمة الصحافيين الأجانب على نوع أخص بهمة وزيرها الحاضر، وحبذا لو عُنِيَتْ حكومتنا بدراستها واقتباس ما يوافقنا من نُظُمِها لإدخاله في إدارة المطبوعات بوزارة الداخلية.

زيارة إيطالي وبيت فني

وزرت الصديق راغب عياد الأستاذ في مدرسة الفنون الجميلة العليا في القاهرة، بدار حميه وهو من كبار الضباط الإيطاليين المتقاعدين، وقد ربَّى أولاده تربية فنية عالية ومنهم ابنته السيدة إيمي كالي عياد المعروفة بلوحاتها الفنية في صالونات القاهرة، وأخوها وقد أقام في الإسكندرية زمنًا قصيرًا، وبيت القائد كالي مليء بالتحف من تماثيل وصور، من صنع ولديه، وقطع زخرفية فنية.

جولة في فورو موسوليني

وصحبني الأستاذ راغب عياد إلى فورو موسوليني، أحدث المنشآت الرياضية في إيطاليا.

مدرسة ومعهد وملاعب لا مثيل لها في العالم، وستكون بعد إتمامها كعبة لهواة الرياضة والفنون.

وفي هذا الفورو مسلة رخامية من الرخام ارتفاعها ١٨ مترًا على قاعدة علوها ثمانية أمتار.

والمدخل مفروش برخام كرارة وعلى جانبيه كتل رخامية كبيرة نُقِشَتْ عليها أسماء من راحوا ضحايا في ميادين استقلال الإمبراطورية.

التماثيل الرخامية في فورو موسوليني.

وتنتهي الساحة بفسقية رخامية بداخلها كرة كبيرة من الرخام، تنجلي محاسنها ليلًا عندما تتدفق حولها المياه الممتزجة بالأنوار الكهربائية ذات الألوان البديعة.

وتحيط بالفسقية دائرة فُرِشَتْ أرضها بقطع الرخام الموازيكو، وقد أُلِّفَتْ من هذه القطع صور للألعاب الرياضية الرومانية القديمة.

وإلى جانبها ملعب على هيئة مدرج أحيط بتماثيل رخامية بأحجام كبيرة، وكل تمثال مُهدًى من إحدى المقاطعات الإيطالية.

وهناك ملاعب أخرى للتنيس وكرة القدم والجولف وأحواض للسباحة وجاليريات لمعارض وقتية لأشغال صغار التلاميذ.

زيارات وسهرات ومقابلات أخرى

وفي اليوم التالي ألقيت نظرة خاطفة على مباني الجامعة وعماراتها المختلفة من بيوت للطلبة ومطاعم ومكتبات وغيرها.

وترددت غير مرة على المفوضية والقنصليتين المصريتين، وساهرت بعض الإخوان والأصدقاء من ممثلينا السياسيين.

وعرَّفني أحدهم إلى الأستاذ عباس الشربيني خريج كلية الآداب، ومدرس اللغة الفرنسية في مدرسة أسيوط الثانوية. وهو يقضي إجازته كل سنة على حسابه الخاص؛ للتردُّد على معاهد العلم في فرنسا وإيطاليا وسويسرا متزودًا من اللغة الفرنسوية وآدابها.

الفصل الخامس والعشرون

من روما إلى تونس

كانت مدينة روما خاتمة المطاف في إيطاليا. وتأهبت للرحلة الجوية إلى تونس وطرابلس.

ترحيل الحاجة شنطة

وجاء دور «الحاجة شنطة»؛ فقد أبت أن تشاركني في هذه الرحلة وحرجمت وبرجمت وخافت على روحها من الارتفاع عن الأرض والتحليق فوق السحاب.

ولم أعارضها أو أمانعها؛ فإن لكل كيلوغرام من حمولتها رسمًا فادحًا للطيارة، أضف إليه نقلها من مطار إلى آخر.

فاتفقت معها على «حيلولة» وقتية.

وتكفل الصديق العزيز الأستاذ المصور راغب عياد، والسيدة زوجته بأن يضماها إلى عفشهما.

وتعهدت شركة السياحة الإيطالية بنقلها من الفندق إلى المركب اليونانية المسافرة من برنديزي.

وكتبت إلى الصديق الأستاذ زكي عزب المهندس أن يستقبلها بالحفاوة في المركب بميناء الإسكندرية، ويسلمها إلى صاحب العزة نسيم جرجس بك، أمين الجمرك ليُعنى بشحنها إلى دار الصحافي العجوز في العاصمة.

وهكذا ارتحت من الست ذات الوزن الثقيل.

من روما إلى أوستيا

وفي صباح يوم الجمعة ٢ سبتمبر بكرت في اليقظة، وركبت تكسًا من أوتيل لوديفيزي، وعلى رأسي الطربوش المحترم، إلى ميدان أسيدرا، وفيه توكيل شركة الطيران الإيطالية «الليتوريا»، فاسترحت نحو نصف ساعة حتى حضر مندوب الشركة وتسلم الباسبورت وتذكرة السفر من الركاب كلهم، ودعانا إلى الركوب في أتوكار بديع سار يدرج بنا في شوارع روما وميادينها الفسيحة مجتازًا منطقة الكوليزيوم، حتى خرج إلى الأوتوسترادا، وهي الطريق التي شقَّها الدوتشي موسوليني معبِّدًا فيها شارعين للسيارات وفي وسطهما طريق لسكة حديد كهربائية حتى مصيف أوستيا البحري.

في مطار أوستيا

وقبل أن نصل إلى المصيف وكازينه وحماماته، انعطف بنا الأتوكار إلى المطار البحري، أو بعبارة أخرى إلى مطار روما الجوي.

وفي هذا المطار البوفيه وغلايات الشاي والقهوة الإكسبرس وغرف الاستراحة ومكاتب الباسبورت والبوليس والجمرك مشرفة على حديقة غَنَّاء تفصِل بينها وبين البحر.

وشرَع الموظفون المختصون في فحص الجوازات والسؤال عمَّا يحمله كل مسافر من نقد وبنكنوت وحوالات سياحة.

ذكريات قديمة

ولما نزلت إلى الطائرة تذكرت الرحالين المغاربة ابن جبير وابن بطوطة وابن سعيد، وكيف كانوا يقضون الأيام والليالي على الشاطئ منتظرين «الريح الطياب» لتقلع بهم السفينة، وكيف أن أحدهم «راحت عليه نومة»، فلما استيقظ وجد السفينة وقد أبحرت وفاتته «يعض في الأرض».

السفر بالطيارة

فطائرات شركة «الليتوريا» تقوم اليوم في مواعيد معينة بالساعة والدقيقة، وهكذا يكون وصولها، ولها جداول «الدليل المفيد» العامة والخاصة يحتفظ بها الغواة.

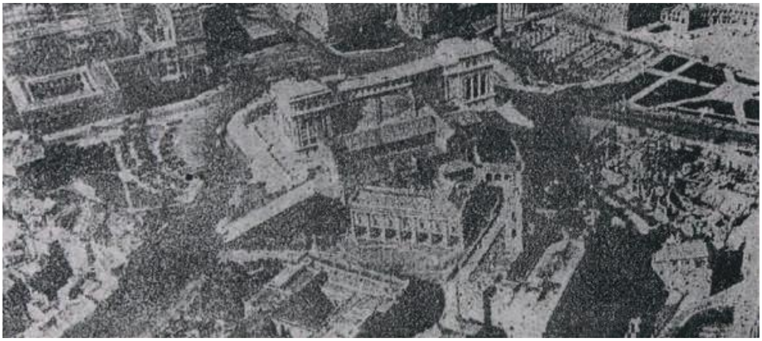

مدينة روما من الطيارة.

وقامت طائرتنا في الساعة الثامنة والنصف بالتمام.

ووزعت علينا مظاريف صغيرة داخلها القطن لسد الآذان.

وانقسم الركب قسمين جلس كل منهما في كابينة.

وكان معي عدد، منه صبايا ملاح وفتيان ظرفاء.

وأخذت الفتيات يتلهين بالتطريز والقراءة والرسم.

وأمسك القائد بصحيفة «البوبولو دي روما» يقرأ فيها ويراقب المحركات.

والمسافة بين مطار روما ومطار تونس ٦٩٠ كيلو تقطعها الطائرة في ثلاث ساعات وربع.

وليس في الطريق ما يستحق الذكر، فالبحر كأنه قطعة من اللازورد لا تتبين له حركة، وقد غُطِّيَ قسم منه بالزَّبَد الأبيض كأنه كريم شانتي.

الوصول إلى تونس

وقبل أن نصل إلى مطار تونس هدأ السائق السير، وأخذ ينزل بالطائرة من عليائها ليرينا مدخل تلك البلاد السعيدة، فتفرجنا على المزارع وبيوتها وطرقها ودروبها، ثم الخليج الفاصل بينهما وبين العاصمة.

ووصلنا في الموعد المحدد، وهو الساعة ١١ والدقيقة ٤٥.

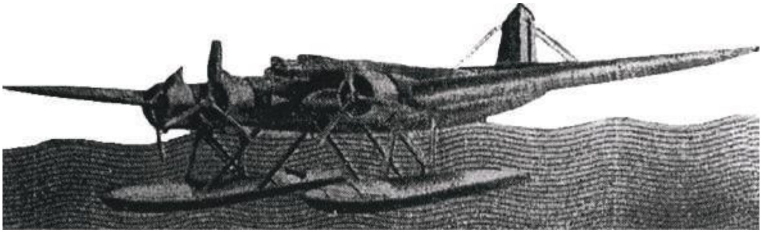

الطائرة تنزل إلى المطار البحري.

وكنت قد أبرقت إلى الأستاذ الوطني الجليل السيد عبد العزيز الثعالبي بأن يوفد من ينتظرني في المطار.

فكان في استقبالي خمسة من شباب تونس، رحَّبوا بي وحمل أحدهم الحقيبة الصغيرة، وآخر مخلاة تحوي البيجاما والبانتوفلي.

منعي من الدخول إلى تونس

وأُدخِلت إلى غرفة عامل الباسبورت، وبعد أن أجاز الدخول للركب كله، شرع في فحص جواز سفري، ثم حملق في وجهي، ودارت بيني وبينه المناقشة التالية:

قال: أين التأشيرة لدخول تونس؟

قلت: أوَليست تونس جزءًا من فرنسا؟ وعلى الباسبورت تأشيرة لفرنسا وبيروت ولبنان.

قال: هذه التأشيرة لا تفيد، بل لا بد من تأشيرة خاصة لتونس، وأمر من الحكومة المصرية بالإذن لك بالسفر إلى تونس.

قلت: أنا لا أريد أن أقيم عندكم إلا ثلاثة أيام.

قال: ولا ساعة واحدة.

ونادي بالشبان الذين كانوا في انتظاري وكتب أسماءهم وعنواناتهم في ورقة.

ثم أمرنا بالانصراف من غرفته وحجز الحقيبة والمخلاة وأقفل بابه في وجهنا.

وركب بعض المستقبلين سيارة لاستقدام صاحب العزة حسني عبد الوهاب بك ليضمني ويسهل لي الدخول إلى المدينة.

وجرت خلال ذلك المخابرات التليفونية بين بوليس الميناء والحكمدارية.
ومُنِعَت الطائرة من السفر نحو ربع ساعة.

إعادتي إلى الطيارة

وانتهى الأمر بأن قادني البوليس الملكي إلى الطائرة، ولم يبرح الرصيف حتى رآها وهي محلِّقة في الجو، مبعدة الصحافي العجوز عن بلد الخلدونية وطلابها.

منظر عام لمدينة تونس.

وبعد أن استقر بي المقام على مقعدي فكرت في الحقيبة الصغيرة وما فيها، وأخصه مظروف مفتوح يحتوي على ١٤ جنيهًا بين بنكنوت إنكليزي وإيطالي وفرنسي.

وأسرعت إلى فتحها وتناولت المظروف وعددت ما فيه، فإذا البوليس الأمين لم يمسه.

ولكن آثار يده ظهرت لي في تقليب الملابس وبقية الأوراق.

وكان كل ما أخذه صورة فوتوغرافية رسمها لي فنان تشيكي في أباتسيا.

وكانت السماء صاحية، والشمس مشرقة، والبحر هادئًا، أو ظهر لي كأنه كذلك، حتى وصلنا إلى مدينة طرابلس في الساعة الثالثة والدقيقة ٤٥ بعد الظهر.

الفصل السادس والعشرون

طرابلس قديمًا وحديثًا

أقمت في مدينة طرابلس خمسة أيام، وفي مدينة بني غازي يومين.

ولست أَدَّعِي أن هذا الأسبوع قد كفاني لمعرفة لوبيا والإلمام بقديمها وحديثها.

نظرة تاريخية إلى لوبيا

ولهذه الجارة الشقيقة العزيزة تاريخ قديم يرجع إلى أيام الفنيقيين واليونان والرومان وعصور العرب والإسبان والأتراك.

وتاريخ حديث هو تاريخ الاستعمار الإيطالي منذ سنة ١٩١١ حتى اليوم.

وللقديم آثاره ومعالمه من هياكل ومسلات وأقواس نصر وجوامع ومساجد.

وللحديث عماراته ومنشآته من إصلاح في الزراعة وتنظيم للتعليم والتجارة وتعبيد للطرق، وأخصها الكورنيش العظيم الموصِّل من حدود مصر إلى آخر المغرب الأقصى.

وقد عنيت إدارة الصحافة في ديوان الحاكم العام بطبع مذكرات وافية عن هذه الشئون كلها باللغة الإيطالية، تقدمها بالمجان إلى كل من يريد التوسع واستقصاء حالة لوبيا في عهد الاستعمار الإيطالي.

وهناك كتب ورسائل، بين قصير وطويل، تفيد الراغبين في دراسة حالة البلاد جغرافيًّا وتاريخيًّا واقتصاديًّا.

منشئ لوبيا الجديد: فخامة الماريشال بالبو.

وإذا كان الأسبوع لم يتَّسِع لهذه الدراسات؛ فإنني قد استفدت فيه وحصلت ما لا أصل إليه من المطالعة والرجوع إلى المطبوعات المختلفة.

حكاية ثانية للباسبورت

وكان للباسبورت حديث في المطار.

قال عامل الجمرك: ليس لديك فيزة بالدخول إلى طرابلس.

قلت: إني مصري، وأدخل إلى إيطاليا بدون فيزة، وطرابلس جزء من إيطاليا، وقد أبلغوني في وزارة ثقافة الشعب في روما أنه لا لزوم للفيزة.

قال: هذه الأمور لا تخصني ولا يمكنني أن أبت فيها، فأنا أسمح لك بالدخول إلى المدينة، ولكن هذا الباسبورت تتسلمه من مكتب البوليس في الكاستلو.

وتلقاني وكلاء الفنادق، فاخترت منها فندق مهاري، وركبت الأتوبيس الخاص به، وسار بي مسافة طويلة على شاطئ البحر، حتى وصلنا إلى الفندق.

وبعد أن قيدت اسمي في الفندق، وعدتهم بإحضار الباسبورت وتسلمت خريطة المدينة وقصدت إلى الكاستلو في تكسي.

الكاستلو أو القصر العتيق

والكاستلو هو قلعة المدينة قديمًا، وسراي الحاكم العام حديثًا، ويسميها الأهالي السراي الحمراء، ويعرفها العلماء باسم القصر العتيق.

ويرجع تاريخها إلى العصر الروماني، على ما حققه الأستاذ جاكومو جويدي، وهو يرى أن بقايا البناء الروماني لا تزال تحت القصر.

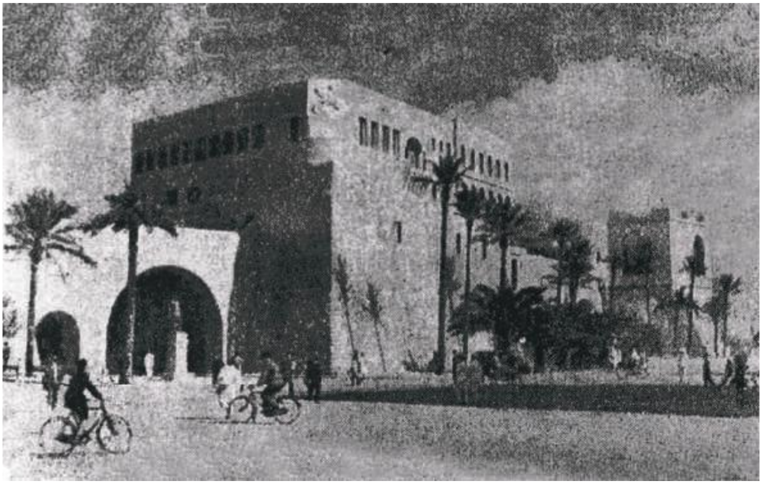

المنظر الخارجي للكاستلو.

وقد اتخذ العرب الحصن الروماني معقلًا لهم، ولبثوا فيه حتى القرن التاسع للميلاد، على ما رواه المؤرخون عن مقاومة إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب لجنوده عندما ثاروا عليه وحاصروه في هذا القصر.

ولما استولى النورمنديون على المدينة أقامت حاميتهم في القصر سنة ١١٤٦، ولكن عهدهم لم يطُل؛ إذ طردهم العرب سنة ١٣٥٨.

وفي العهد الإسباني الذي لم يدم إلا ٢٠ سنة (من سنة ١٥١٠ حتى سنة ١٥٣٠)، عظُم شأن القصر؛ لأنهم اتخذوه معقلًا لهم لصد غارات الأتراك عنهم، فأدخلوا فيه إصلاحات كبيرة، وزادوا في مشتملاته وأقاموا فيه القلعتين.

واحتله كذلك فرسان مالطا ولبثوا فيه عشرين سنة، ثم أخرجهم منه الأتراك الذين هاجموا طرابلس بأسطولهم سنة ١٥٥١ تحت إمرة أمير البحر سنان باشا.

وجاء في رسالة كُتِبَتْ في القرن السابع عشر أن القصر أنشأه الإفريقيون، ثم أصلحه الإسبانيون وزادوا في بنائه.

ويبلغ محيط دائرته نحو ٥٠٠ خطوة تضرب أمواج البحر جانبه الشرقي ويحيط به خندق من الجهات الأخرى، وهو مربع الشكل، تقوم على جوانبه أربع قلاع أطلق عليها الإسبانيون أسماء بعض القديسين.

وعنى آل قره مانلي بتجميل القصر وزيادة مبانيه.

واتخذه الإيطاليون مركزًا للحكومة، ومنعتهم الحرب الدولية العامة من النظر في إصلاحه، ولكنهم وجَّهوا نظرهم إلى ذلك في عهد الكونت والبي من سنة ١٩٢٢.

وعلى من أراد المزيد الرجوع إلى الرسالة التي وضعتها الحكومة الإيطالية عن القصر، وما كتبه الأستاذ عمر فخري المحيبشي في مجلته «ليبيا المصورة» عدد ديسمبر سنة ١٩٣٠.

ولا تزال آثار القصر القديم باقية، يراها الزائر في الأفنية والسلالم والقاعات المختلفة التي يحرسها جنود وطنيون بملابسهم العربية، وأثاثها الذي روعيت فيه النماذج العربية والرومانية القديمة.

فأنت في هذا القصر بين مظاهر الحكم والإدارة ومعالم الفن القديم.

دائرة الدعاية والصحافة

وبعد أن انتهيت من تخليص الباسبورت، بكل سهولة، من دائرة البوليس قصدت قسم الإدارة، وقابلت فيه القومندور جوزيبي لافادجي الذي يعرفه أهالي بيروت ولبنان حيث قضى شطرًا من شبابه، وهو يجيد العربية، ويعهد إليه في مراجعة الصحف العربية وترجمة ما يهم حكومة طرابلس منها.

ثم انتقلت إلى دائرة الدعاية والصحافة، وفيها الكافاليري جويدي ألبرتو برناردي الموظف الفني، والسيد بنيامين ركاح.

والكافاليري برناردي مثال الظرف والأدب والكياسة، خبير بشئون البلاد والعباد وتاريخها القديم، وكل ما فيها من منشآت ومستحدثات وإصلاحات عمرانية وزراعية منذ الفتح الإيطالي.

من مناظر مدينة طرابلس القديمة.

وقد انتفعت بهذه الخبرة، وكان له عليَّ الفضل في كل ما أردتُ معرفته في شئون البلاد.

والأستاذ ركاح، رجل مستنير دقيق، محيط بأحوال البلاد العربية وحركة الطبع والنشر فيها بحكم وظيفته ومطالعاته اليومية.

وكان يكالم شابًّا لاحظت أنه أزهري من لباسه وكلامه، فصدَقت فراستي، وذكر لي أنه طرابلسي اسمه أبو بكر ساسي ويدرس في الأزهر الشريف، وقد جاء لزيارة أهله.

وأراد الأستاذ ركاح أن يحملني مجموعة من المطبوعات الإيطالية، فاعتذرت إلا عن قبول أربع رسائل منها عن التربية والتعليم والمنشآت الحديثة في ليبيا والإصلاحات الصحية وأعمال الإدارة.

الفصل السابع والعشرون

أسبوع في طرابلس

«قهوة فيكتوريا» قهوة مختلطة في أول القسم الوطني خلف الكاستلو، زبائنها من المستعمرين الإيطاليين، والنزلاء المالطيين، والأهالي المسلمين والإسرائيليين.

وبجوارها مطعم، وفوقها فندق من الدرجة الثالثة، جُلت فيها مع الطالب الطرابلسي أبو بكر ساسي، ولاحظت أنه يحدثني ويجيب على أسئلتي بحذر واحتياط. ولكني انتهيت بأن هدأت روعه وطمأنته بأنني لا أريد البحث في السياسة أو علاقة الطليان بالعرب، بل كل قصدي هو الفرجة على البلد وما فيها من معالم قديمة ومنشآت حديثة والوقوف على حالة الأدب والصحافة والتربية والتعليم.

لهجات أبناء المدينة والريف

وتسمعت إلى لهجات المتكلمين من جُلَّاس ومشاة، فإذا بها في تباين واختلاف.

وتأكدت بذلك صحة ما قلته في هذا الموضوع منذ سنتين وعارضني فيه أديب طرابلسي على صفحات الأهرام؛ فأبناء المدينة، وأخصهم من تربوا في الأزهر والمدارس الوطنية وحفظوا القرآن الشريف أو بعض أجزائه، تقرُب لهجتهم من اللهجة المصرية ممزوجة بألفاظ عربية صحيحة.

وعلى عكس ذلك العامة وأبناء الريف، فلهم رطانة خاصة مشوبة بكلمات إيطالية.

وقد حاولت مكالمة هذا الفريق الأخير، فلم يفهموني ولم أفهمهم، ووقف أكثرهم صامتين لا يدرون بأية لغة أخاطبهم.

المواصلات في المدينة

وتنقلت والطالب الأزهري في بعض المواضيع العامة وتاريخ المدينة وثروة الأهالي.

وبسطت بين يديه خريطة المدينة، فأرشدني عليها إلى القسم الإفرنكي والقسم الوطني.

وطرق المواصلات بالتاكسيات وشوفيراتها كلهم من الإيطاليين والأجانب، ثم عربات الأجرة ذات الجواد الواحد وسائقوها وطنيون وأجانب وتسير كلها بالعدادات، ولها في النهار تعريفة وفي الليل تعريفة أخرى، ثم الأتوبيسات الكهربائية، وفيها درجة أولى ودرجة ثانية، ومنها أتوبيس دائري، وأتوبيسات تذهب إلى الضواحي، وفي كل محطة جدول بمواعيد وصول العربات.

والأجرة في السيارات الحافلة مثل مصر والإسكندرية قرش صاغ للدرجة الأولى، وخمسة مليمات للدرجة الثانية.

جولة في القسم القديم

وبدأت تجوالي في المدينة بالحي العربي، وهو القسم القديم، ويقع وراء القلعة وأسوارها، وكان للقلعة أبواب تُقفل ليلًا، فلا يباح للأهالي الخروج إلى الساحل البحري، وهذا القسم القديم مشابه للأحياء الوطنية القديمة في مصر والشام.

ويمتاز الحي الطرابلسي بأن أرضه مرصوفة بقوالب الأسمنت ومصابيح الكهرباء والنظافة التي تشمل البيوت ذات الواجهات المدهونة باللون الأبيض.

وأغلبية البيوت مفتَّحة الأبواب، وتعرف بيوت اليهود بجلوس النسوة إلى جانب الأبواب على الأرض أو الكراسي، وترى الكثيرات منهن جالسات في الحوش، يشتغلن بالأعمال المنزلية أو حياكة الملابس أو الدانتلا.

ولاحظت في أغلب هذه الحيشان موائد مفروشة بالمشمع الملون.

ويكثر في دكاكين القصابين لحم الجمل، وهم يزينونه بورق البهرجان الذهبي وطلاء وردي اللون.

وقَلَّ أن ترى في هذا القسم أحدًا من الإيطاليين.

ويمكنك أن تستعرض فيه الوطنيين بملابسهم المختلفة المتعددة الألوان من برانس وسراويل وجلابيب بيضاء وبالطوات وحرائر ملونة.

وترى فيه السيدات الإسرائيليات سافرات مئتزرات بأزر من الحرير الأبيض.
أما الوطنيات فلا تظهر منهن إلا الخادمات السودانيات.

سوق المشير وقهوتها

وفي هذا القسم سوق المشير، وهي جلارية خاصة بالصناعات الوطنية المحلية من حديد ونحاس ونسيج وغيرها.

وفيها قهوة المشير، وهي قاعة رقص وغناء، ولما وصلت إليها وجدتُها مقفلة الأبواب، وقيل لي إنها لا تفتح إلا شتاء.

قلت: وهل تغني فيها وترقص سيدات وبنات من أهالي البلاد؟

قالوا: كلا يا سيدي، فالمغنون والمغنيات والراقصات يأتون إلينا من مصر ومن تونس. وقد يسمح بعض الأهالي الإسرائيليين لبناتهم ونسائهم بالرقص والغناء، أما المرأة الطرابلسية، فقد رأيت أنها لا تسير في الطريق بحكم الشرع والتقليد، فإذا تجاسرت على الظهور في مرسح، كان نصيبها تقطيع جسمها إربًا.

سوق الترك وتجارها

وهناك سوق الترك، وهي سوق عامرة بالتجارات المختلفة بين وطنية وشرقية، ولجماعة الهنود فيها تجارة واسعة.

والسوق في مجملها شبيهة بخان الخليلي، ومنها جزء مسقوف، ويكثر فيها عرض السجاجيد الفارسية.

وقيل لي إنها تقفل يومي السبت والأحد؛ لأن الأغلبية من تجارها مسيحيون أجانب ويهود وطنيون.

مخزن الرخام ومقبرة الجنود

وعلى مقربة من الكاستلو قوس ماركوس أورليوس، وكان مطمورًا ويسميه الأهالي مخزن الرخام، فكشف عنه الإيطاليون وأحاطوه بدائرة من الرخام الأبيض.

وإلى جانب القوس مقبرة الضباط وقادة السيارات الإيطاليين الذين استُشهِدوا في حروب فتح المدينة، ومنهم السيدة قرينة الماجور برجنتي.

سوق المشير.

وتتفرع من ميدان ماركوس أورليوس عدة شوارع وحارات يسمونها «زنقة» أو عرصة، ومنها «زنقة الفرنسيس» و«زنقة الأربع عرصات».

وفي زنقة الفرنسيس قنصلية فرنسا في دار تمثل العمارة الطرابلسية القديمة خير تمثيل في فنائها ونافورتها وسلمها وبوائكها وزينة قاعاتها.

مسجد القره مانلي وجامع كورجي

وفي الحي الوطني جامعان مشهوران، وهما: مسجد القره مانلي، وجامع كورجي.

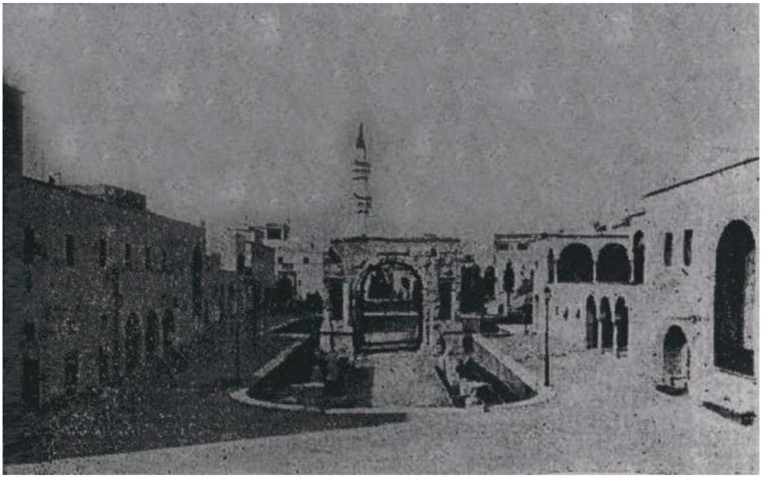

قوس ماركوس أورليوس.

ومسجد القره مانلي أنشئ في القرن الحادي عشر للهجرة، وفيه مدافن أبناء العائلة. وآخرهم حسن باشا القره مانلي.

والسطح الداخلي لجدران المسجد مكسوٌّ بمربعات صغيرة من الرخام الملوَّن.

وتحيط به من الداخل إيوانات يسمونها السُّدَّة، كانت معدة للسيدات المصليات، أما الآن فيصلي فيها الرجال.

والكورجي مملوك لآل القره مانلي، جيء به أسيرًا من بلاده وهو صغير، وكان مسيحيًّا وأسلم، وحسُن إسلامه، وأسرى وبنى الجامع المعروف باسمه في القرن الثاني عشر للهجرة.

وإلى جانب كل من الجامعين مدرسة للعلم الديني.

والجامعان ومدرستاهما تمثل الفن المغربي القديم خير تمثيل.

في مطعم وطني

وشمشمت على مطعم وطني، أتذوق فيه طعم الكسكسي الطرابلسي.

فدلني بعض أهل الخير على مطعم خلف سور المدينة يشتمل على دورين.

مسجد القره مانلي من الداخل.

وقف في الدور الأول منه الطهاة مشمِّرين، وبين أيديهم القِصاع والجِفان وحلل الخضر عُقِدَتْ فوقها سحب كثيفة من الدخان.

واشتمل الدور الثاني على ثلاث غرف متوسطة للطعام، على مثال غرف العجاتي بين الصاغة وخان الخليلي.

ورحب بي الجرسون بلهجة مصرية، وعرَّفني بنفسه وذكر لي أن اسمه حسن الشربيني من أهالي الجمالية بالقاهرة وأنه حاصل على الشهادة الابتدائية وأن جده كان قد دخل في حماية إيطاليا.

وذكرت له الاسم والكنية، فزاد في الترحيب والتكريم وأحضر لي بعض أعداد المجلات المصرية الأسبوعية، وسألته عمَّا إذا كان مسرورًا من الإقامة في طرابلس، فهز رأسه علامة للنفي، وقال إنه يبذل كل جهد في العودة إلى مصر.

وأوصيته على طبق الكسكسي، على أن يكون مجرَّدًا من اللحم، خيفة أن يكون لحم جمل، فلبى الطلب سراعًا.

وبينا أنا أتناول الطعام، حضر اثنان من الزبائن وشاركاني في المائدة.

وبادأني أحدهما بقوله: أظن أن حضرتكم الصحافي العجوز؟

قلت: ومن أدراك؟

قال: أنا صادق عبد الرازق البشتي من خريجي المدارس الثانوية، وأشتغل مترجمًا في ديوان الولاية، وأطالع الأهرام ولا يفوتني هامشك يومًا.

ثم عرَّفني بصاحبه، وهو التاجر عبد السلام الناقوع.

وكانت جلسة طيبة جرى فيها الكلام عن الصحافة المصرية وكتابها.

وأبى الأستاذ البشتي إلا أن يطلب الفاكهة والقهوة، وأومأ إلى صاحبنا الشربيني، فلم يقبل مني ثمن الغدوة.

وبعد مناكفة قبِل البقشيش مني غصبًا.

في قهوة وطنية

ولمحت إلى جانب السور في الحي الأوروبي قهوة نظيفة كُتِبَ عليها «القهوة الطرابلسية» بحروف عربية بديعة.

وسرَّني ترتيبها ونظافة مناضدها ذات الأغطية الملونة.

وسألت عن صاحبها، فعلمت أنه الشاب الوطني بشير بن زغوان، وقد أتم دراسته الابتدائية، ورأى أن ينصرف إلى العمل الحر، ففتح قهوته هذه، فأقبل عليه الوطنيون والأجانب.

والطلب من قهوة وشاي ولكوم بنصف ليرة (قرش تعريفة)، وهناك الشيشة الحِمِّي، وأنواع البسكويت والشكولاتة والفوندان.

سألته عما إذا كان يبيع الخمر؟ فقال: لا سيدي. قلت: وهل الوطنيون ممنوعون من بيعها؟ قال: لا يا مولاي، ولكن ديننا يحرِّم علينا أن نتاجر فيها أو نسقيها.

وفي القهوة فنوغراف أسمعنا عدة أقراص لأم كلثوم وعبد الوهاب.

وقال إنه يشتغل بتركيب جهاز للراديو، ويرجو أن يسمع زبائنه راديو مصر واضحًا مثل بقية المحطات الأوروبية ومحطة تونس ومحطة الجزائر.

وفي هذه القهوة تعرفت إلى بعض التجار والموظفين، وبدأت تزول وحشتهم مني، ودعاني بعضهم إلى بيوتهم فاعتذرت، ووعدت بإجابة الطلب في زيارة قادمة.

الفصل الثامن والعشرون

طرابلس الجديدة

لمهندسي التنظيم رأيان متعارضان في توسيع المدن القديمة وإصلاحها.

يقول الفريق الأول إنه يجب أن يترك القديم على حاله وتنشأ إلى جانبه مدينة حديثة.

ويقول الفريق الثاني بإصلاح القديم وتنظيمه بشَقِّ الشوارع الواسعة، ولو بإزالة الآثار والمعالم القديمة.

وقد اتبع المستعمِرون الفرنسيون والإيطاليون رأي الفريق الأول، في مدن أفريقيا الشمالية من بنغازي وطرابلس شرقًا إلى طنجة والدار البيضاء غربًا.

طرابلس الجديدة

ففي مدينة طرابلس، كان سور الكاستلو هو الحد الفاصل بين المدينة والفضاء المترامي على ساحل البحر، حيث كانت الأرض خرابًا يبابًا.

وفي هذا الفضاء خطَّط المهندسون الإيطاليون المدينة الجديدة، تحت رعاية وإرشاد الماريشال بالبو، وأنشَئوا على ساحل البحر كورنيشًا دونه كورنيش الإسكندرية، ورسموا الشوارع والميادين الواسعة، وقسموا أرض البناء بين قطع صغيرة وكبيرة، وسهلوا شراءها للطالبين بأثمان زهيدة وأقساط طويلة الآجال.

فأقبل على الشراء جماعات من أفراد وشركات إيطالية، وكثير من أسرياء اليهود الوطنيين وبعض التجار والماليين الطرابلسيين.

ووُضِع نظام للبناء والتعمير وتعدد الأدوار، فلم تمضِ سنوات حتى ظهرت المدينة الجديدة تختال في ثوب بديع من المنشآت الحديثة، وقد رُوعِي فيها الطراز العربي مع شيء من التعديل، وفي الكثير من العمارات الكبيرة بوائك، فإذا بعدتَ عن وسط المدينة رأيت الفيلات البديعة والقصور والعمارات، ولكل واحدة حديقتها الكبرى.

وفي الكثير من الشوارع حدائق ومنتزهات ممتدة على مسافات طويلة.

وإلى جانب الكاستلو على شاطئ البحر عمودان وُضِعَ على أحدهما مركب رومانية، وعلى الثانية تمثال الذئبة من النحاس.

بياتسا ديتاليا

وتبدأ المدينة الجديدة بميدان إيطاليا، وهو ميدان متسع يشرف من جهة على البحر، ومن جهة أخرى على الكاستلو وديوان الحاكم العام.

وفي وسطه نافورة بديعة تتدفَّق منها المياه ليل نهار، ممتزجة ليلًا بالأنوار ذات الألوان المختلفة، وتحيط بالنافورة عمارات كبيرة ومصالح مختلفة ودور للبنوك والأندية والمطاعم والبارات ومكاتب شركة السياحة الإيطالية والطيران «الليتوريا» وبنك روما وغيرها.

ويتفرع من البياتسا ديتاليا عدة شوارع هي: فيكتور عمانويل، لومبارديا، لاسيون، سيسليا، كونت فولبي، ميزران.

وإلى جانب من الميدان شارع أمير بيمونتي أو شارع البحر، وهو قسم من طريق السيارات التي توصِّل من أقصى المغرب إلى حدود مصر الغربية، ويغص بالقصور والحدائق حتى يخرج إلى أطراف المدينة، وفيها تاجورة وسيدي مصري والبساتين والقرى العامرة.

شارع فيكتور عمانويل

ويتوسط البياتسا ديتاليا «كورسو فيتوريو إيمانويل»، وهو شارع البورصات والفنادق والقهوات، وفيه بنك ليبيا، ودار البوستة العمومية، وإلى جانبها قهوة كبرى تغص كل ليلة بالزبائن وفيهم عدد يُذكر من الوطنيين لسماع جوقة موسيقية صغيرة كنت أغشاها كل ليلة.

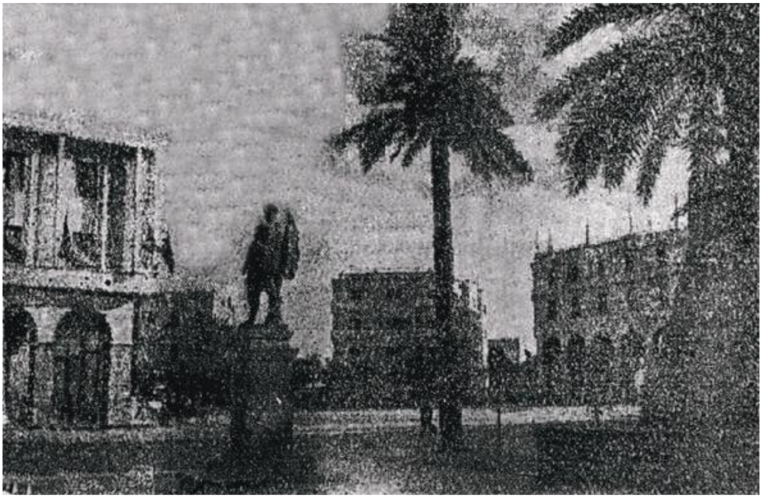

ميدان إيطاليا.

وهناك مكتبة خاصة لبيع الكتب الشعبية والمجلات التي ترد بالطيارة، فتجد العشرات من القراء واقفين صفوفًا لأخذ حاجاتهم من هذه الدوريات بين يومية وأسبوعية ونصف شهرية، وأغلبها من صحف روما، وفيها بعض صحف باريس ولندن.

ومما لاحظته وجود غير واحد من الوطنيين يزاحمون الإيطاليين على شراء الصحف الإيطالية ومطالعتها بشغف.

وهناك كذلك عدد كبير من مخازن الأقمشة والآثار وأدوات الزينة وغيرها تمتلئ بالزبائن النهار بطوله وشطرًا من الليل.

فندق مهاري

وكنت في انتقالي بين الكاستلو وفندق مهاري أمتع النظر نهارًا بشارع فيكتور عمانويل، وليلًا بالكورنيش البديع وأنواره الزاهية.

وفندق «مهاري» من فنادق الدرجة الأولى، في دورين مبني على الطراز المغربي، وفيه ست حدائق صغيرة تتوسط كل منها نافورة تحيط بها البوائك وتنتثر فيها الكراسي المريحة إلى جوانب موائد صغيرة لتناول الفطور صباحًا والشاي بعد الظهر.

والغرف، وإن صغرت، فقد فُرِشَتْ فرشًا أنيقًا، ولبعضها حمَّام خاص، أو حمام لكل غرفتين.

ويمتد بين الفندق والبحر سرداب تحت الشارع العمومي يوصِّل إلى البحر حيث يوجد مطعم الفندق والبار والغُرَف والقاعات المُعَدَّة للرقص والحفلات الساهرة.

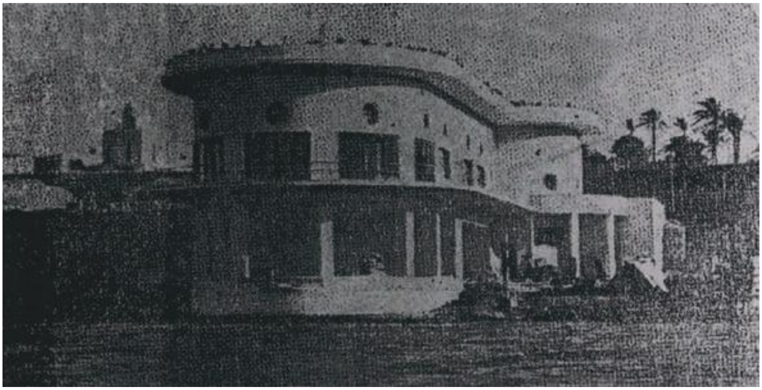

فندق مهاري.

ويتولَّى الخدمة في الفندق والمطعم غلمان وصبيان من الوطنيين بملابسهم وطرابيشهم الوطنية المغربية ذات الأزرار الطويلة، وكلهم ظرفاء أَلِبَّاء يقومون بواجبهم على أحسن حال.

مشاهد أخرى في المدينة

وممَّا يشاهد في شارع البحر الفندق العظيم «جران أوتيل»، وهو عمارة كبيرة عديدة الأدوار يجري فيها التصليح والتعمير استعدادًا لاستقبال السُّيَّاح في فصل الشتاء.

وعلى مقربة منها كازينو «ودان» ويدل ظاهرُه على فخامته واتِّساع جوانبه، وهو مقفل مثل الفندق الكبير، وقيل لي إنه يحوي من القاعات والمراسح والملاعب ما لا مثيل له في بلاد أفريقيا كلها.

ثم قصر الحاكم العام، وتحيط به حدائق ناضرة بما فيها من أنواع الزهر والأشجار المختلفة.

ثم كتدرائية طرابلس تعلوها القباب وأبراج النواقيس والصلبان.

وميدان المعارض والسوق الدولية السنوية التي تشترك فيها الدول المختلفة.

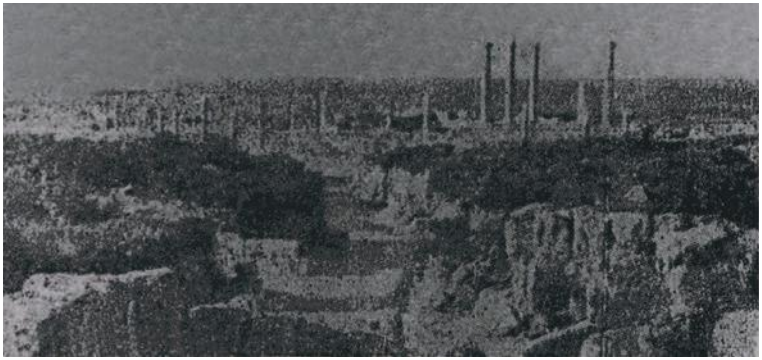

خرائب لبتس مانيا.

ومضمار سباق الخيل، وسباق السيارات، والمطار البحري، والمطار البري الذي تقوم منه كل يوم طيارة وتحط أخرى من أوروبا إلى بنغازي في طريقها إلى مصر والسودان والحبشة.

وتجد في أنحاء المدينة، وعلى الأخص في الضواحي، الأسواق الوطنية التي يشتغل فيها الوطنيون ببيع الخضر والفاكهة والمقاثي وتزدحم صباحًا بالزبائن من الأهالي والإيطاليين.

وهناك متحف للتاريخ الطبيعي أنشأه فخامة الماريشال بالبو في أحد أجنحة الكاستلو وقسَّمه إلى قسمين: أحدهما للجيولوجيا، والثاني للإيتنوغرافيا.

وقيل لي إن على الشاطئ حمَّامات وليدو وكازينو، ولكن ضيق الوقت لم يسمح لي بزيارتها.

وكان السنيور برناردي يشير إلى كثير من العمارات المختلفة، أثناء تَجوالنا بالمدينة، ويسمى لي ما هنالك من معاهد صحة ومدارس ورعاية أطفال وقاعات سينما وغيرها

ممَّا أنشأته الحكومة وجماعات من الماليين. فأصبحت مدينة طرابلس بحقٍّ من أبدع مدن الشمال الأفريقي بعد الإسكندرية.

بلد السياحة والآثار

وعنيت الحكومة الإيطالية بتمهيد طرق السياحة في طرابلس وتوجيه نظر السائحين إليها.

فتغص بهم المدينة وتروج حركة الأخذ والعطاء، ثم تنطلق بهم السيارات إلى مدن الآثار التي كشف عنها العلماء وأهمها آثار لبتس مانيا (واسمها بالعربي لبده)، وفيها التماثيل والمدرَّجات والهياكل والبرابي الشاهدة بفضل قدماء الرومان وتفنُّنِهم في التشييد والتعمير والحفر والنقش والتصوير.

الفصل التاسع والعشرون

بين الصحافيين والأدباء

سألت الطالب الأديب أبو بكر ساسي: أين مقر الأدباء والصحافيين في مدينة طرابلس؟
قال: في إدارة جريدة «العدل أساس الملك»، وهي ليست بعيدة عن قهوة فيكتوريا.
وأردف القول بالعمل، وصحبني إلى هذا المحفل الأدبي.

جريدة العدل أساس الملك

ودار جريدة العدل، في الحي الوطني على مقربة من السور الفاصل بينه وبين الحي الأجنبي.
وفي غرفة واحدة إدارة الجريدة ومكتب التحرير.
دخلنا وحيَّينا، فقوبلنا بالترحيب والتكريم وأكواب الشاي الأخضر المنعنع والحديث الشهي الطلي عن الأدب والصحافة.

مؤسس جريدة العدل

حدثونا عن صاحب الجريدة ومنشئها المرحوم عبد الله بانون المحامي، فقالوا إنه ولد سنة ١٢٨١ هجرية، ووالداه شريفان من خيرة الأسرة الطرابلسية.
ودرس في المدارس الابتدائية فالرشيدية، ونال الشهادة الثانوية، واتصل بالمحكمة البدائية، وتلقى مبادئ علم الحقوق على المرحوم قيصر كرم اللبناني، كبير كُتَّابها.
ثم عُيِّنَ معتمدًا للبلدية، فمأمورًا لتحصيل الرسوم، وأدى الامتحانات القانونية فنجح فيها نجاحًا باهرًا، وعُيِّنَ عضوًا دائمًا بمحكمة التجارة، فمفتشًا بدائرة تحصيل الرسوم، فنائبًا لمحكمة التجارة، ثم اشتغل بالمحاماة فنال ثقة رجال القضاء والمقتاضين.

المرحوم عبد الله بانون منشئ جريدة العدل!

وكان إلى آخر أيام حياته شيخًا للطريقة العيساوية، ولها زاوية إلى جانب إدارة الجريدة.

ولما احتل الإيطاليون طرابلس، كان المرحوم عبد الله بانون أول المنادين بوجوب التفاهم معهم، وله في ذلك مواقف مشهورة، أنكرها عليه بعضهم، ثم أدركوا نبل مقصده فحبَّذوه.

وتوفي مساء يوم الأحد ٧ أبريل سنة ١٩٣٨، فعم الحزن عليه والأسف، واحتُفِل بجنازته احتفالًا عظيمًا.

الأستاذ محمد زكي بانون

وخلفه في تحرير الجريدة وإدارتها نجله الأستاذ محمد زكي بانون، وهو أديب معروف، درس في مدارس الحكومة التركية، وزار مع والده تركيا ومصر ويجيد اللغتين التركية والإيطالية، ويلم باللغة الفرنسية.

مساعد التحرير

ويساعده في التحرير الأستاذ الشيخ علي فهمي ابن الشيخ محمود نديم بن موسى.

وقد تدرَّب على التحرير ثماني سنوات على يد والده في جريدة «الرقيب العتيد»، التي عُطِّلَتْ منذ سنة تمهيدًا لإنشاء جريدة يومية تحت إشراف الحكومة، تجمع فيها الكتاب والمحررين المعروفين في طرابلس.

شيء عن جريدة العدل

وتصدر جريدة العدل أسبوعية في سِتٍّ صفحات ذات خمسة أعمدة (أصغر من صفحات الأهرام).

وتشتمل الصفحة الأولى على مقال افتتاحي، ثم مقالات مختصر بعضُها مترجَم ويليها في الصفحات التالية أخبار الأسبوع السياسية وأبناء العالم وأخبار الحاضرة (العاصمة) والولاية، وصفحة خامسة للعلم والأدب والاجتماع، فالإعلانات مفرَّقة في الصفحات الأخيرة.

ويعاون الجريدة فريق من الأدباء وأساتذة المدارس وغيرهم بمقالات وقطع مترجَمة ورسائل إخبارية، وقَلَّ أن يخلو عدد منها من مساجلة بين أهل الأدب والمشتغلين بالعلم والدين.

وورق الجريدة صقيل وحروفها جليَّة، وتطبع في «مطبعة مادجي» التي كانت ملكًا للحكومية التركية، ثم وضعت حكومة إيطاليا يدها عليها وأدارتها زمنًا، واشتراها أخيرًا السنيور مادجي فوسَّعها وزودها بالحروف وأعدها لخدمة الصحافيين والأدباء.

وقد طُبِعَتْ فيها كتب في التاريخ العام، والنحو والإملاء، والدروس الإسلامية لأبناء المدارس والكوميديا الإلهية.

الأدباء والصحافيون

وسألت عن الكُتَّاب والأدباء والشعراء في طرابلس، فذكر لي الأستاذ الشيخ علي فهمي وبعض الحاضرين أسماء غير واحد، وهم: الأستاذ عبود أبي راشد بك اللبناني من أهل وادي الشحرور، وقد تلقى علومه الابتدائية والثانوية في لبنان وإيطاليا.

وأنشأ جريدة «النصير» في بيروت في عهد الحكم التركي يومية ١٥ سنة متوالية، واشتغل بتدريس اللغة الإيطالية، وألَّف عدة كتب لتعليم اللغتين العربية والإيطالية.

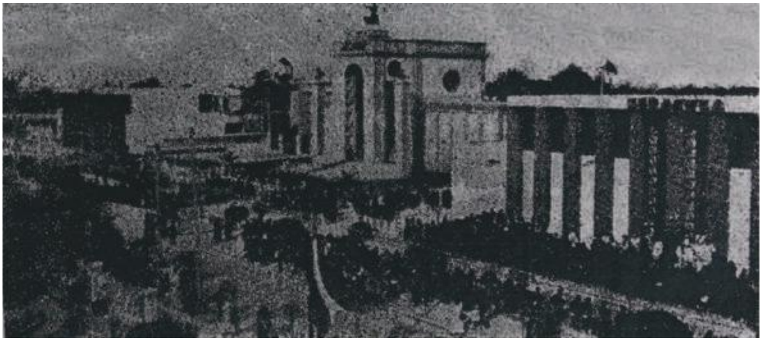

من مناظر طرابلس: سراي المعارض والأسواق.

واستدعته حكومة إيطاليا للعمل في القسم السياسي في بوقته مديرًا لدائرة الترجمة، وهناك اشتغل بترجمة «الكوميديا الإلهية» لدانتي إلى اللغة العربية، ولما أتمَّها طبعها في مطبعة مادجي، وقدم بنفسه نسخة منها إلى الدوتشي موسوليني فأحسن استقباله وأثنى على أدبه، كما أثنت عليه أكاديميَا دتياليا وأعلنت تقديرها لعمله.

ولا يزال حتى الساعة موظفًا بمالية حكومة لوبيا.

والأستاذ أحمد راغب الحصايري: من أعيان طرابلس وأدبائها المعدودين، وقد أمضى زمنًا في القاهرة منتسبًا إلى كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول.

والأستاذ أحمد رفيق المهدوي: شاعر برقة.

والشيخ عبد الرازق الطاهر البشستي: قاضي تاجورة، شاعر وناثر.

والأستاذ الشيخ محمد عمر المسلاتي: مدرس اللغة العربية في المدرسة الإسلامية العليا من كبار الكتاب.

والأستاذ محمد كامل الهماني: المفتش بالمدارس العربية الإيطالية أديب وصحافي معروف.

والأستاذ محمد بن عامر: كاتب ومراسل صحيفة العدل في بنغازي.

والسيد عمر فخري المحيشي: صاحب جريدة «بريد برقة»، ومجلة «ليبيا المصورة» في بنغازي.

والأستاذ الشيخ أحمد الشارف: عضو المحكمة الشرعية العليا، عالم وشاعر.

من مناظر طرابلس: سوق وطنية للخضر.

والأستاذ الشيخ سعد المسعودي: كبير الكتاب في المحكمة الشرعية العليا، من كبار الكتاب والشعراء.

والسيد أحمد قنابه التاجر: شاعر الشباب.

والأستاذ أحمد الفقيه حسن: أمين مكتبة الأوقاف.

غرام أدباء طرابلس بالمطالعة

وأدباء طرابلس وخريجو المدارس مغرمون بالمطالعة واقتناء المطبوعات العربية عامة، ومؤلَّفات الكتاب المصريين خاصة.

وفي مدينة طرابلس مكتبتان متوسطتان لبيع الكتب العربية والمجلات، وهما مكتبة محمد مختار شرف الدين ومكتبة أبناء إبراهيم المشيرقي.

ويعاني بعضهم صعوبة في إرسال النقود إلى مصر لجلب حاجتهم من المطبوعات.

ولا بد من مراجعة الحكومة ما تشتبه فيه من الكتب والمجلات الواردة من الخارج، ومن مصر على الأخص، قبل تسليمها إلى مستورديها.

مكتبتا الأوقاف والحكومة

وفي مدينة طرابلس دار كتب تابعة لإدارة الأوقاف الإسلامية، فيها عدد كبير من الكتب القديمة أكثرها مخطوط.

وقد عني بها الكونت فولبي حاكم طرابلس (من سنة ١٩٢٢ إلى سنة ١٩٢٥)، فزودها بمجموعة كبيرة من المطبوعات العربية.

ولا تزال الحكومة مهتمَّة بأمر هذه المكتبة فأمرت بتنظيمها ووضع فهارس وفيش لكتبها.

وقد تقرر أخيرًا نقلها إلى عمارة الأوقاف المعروفة باسم عمارة سيدي حمودة في ميدان إيطاليا، حيث يجد فيها الباحثون والمطالعون الكتب مفهرسة والموظفين الفنيين القائمين عليها وتقديمها للطالبين بإشراف الأستاذ أحمد الفقيه حسن.

وأنشأت الحكومة دار كتب خاصة للإيطاليين والأجانب قوامها كتب إيطالية وفرنسوية، وأردت أن أزورها، فقيل لي إنها مقفلة لعطلة المدارس.

الفصل الثلاثون

في التربية والتعليم

أنست بالإخوان الأدباء المترددين على إدارة جريدة «العدل» فلم يمضِ يوم دون أن أزورهم، وأحدِّثَهم عن مصر ويحدثوني عن لوبيا.

ولكن هذه الأحاديث لم تتجاوز دائرة الأدب والصحافة والأخلاق والتربية والتعليم.

المدارس في أيام الترك

وسألتهم يومًا عن المدارس في لوبيا، فأفضى إليَّ أحد المشتغلين بالتربية بالمعلومات التالية:

قال: في أيام الحكم التركي، كان التعليم وفقًا لمناهج المدارس التركية وبلغة القوم. أما التعليم باللغة العربية، فكان قاصرًا على كتاتيب تحفيظ القرآن الشريف، والمدارس التابعة لأوقاف الجوامع. وكان تدريس الفقه والنحو والشرع الشريف في حلقات بالجوامع، ويقوم به أساتذة من خريجي الأزهر الشريف ومن تخرج على أيديهم.

التعليم الديني في عهد الطليان

فلما احتل الطليان لوبيا، لم يَمَسُّوا التعليم الديني في الكتاتيب والجوامع.

ثم أدخلوا بعض تعديلات في نظام هذا التعليم وترقية أسلوبه مع إبقائه في أيدي علماء الدين.

وعُنُوا بالكتاتيب من الوجهة الصحية، وأمروا بفرشها بالحصر على نفقة الحكومة، ولكنهم لم يتدخلوا في إدارتها بوجهٍ ما، ولا تزال حتى اليوم تحت رقابة إدارة الأوقاف الإسلامية.

في التعليم الأوروبي الجديد

ثم شرعت الحكومة الإيطالية في إنشاء مدارس ابتدائية خاصة لأبناء العرب في العاصمة والأقاليم.

والتعليم في هذه المدارس مجاني، ومدته خمس سنوات، ومناهجه قريبة من مناهج التعليم في المدارس المصرية الابتدائية، والمعلمون إيطاليون وطرابلسيون.

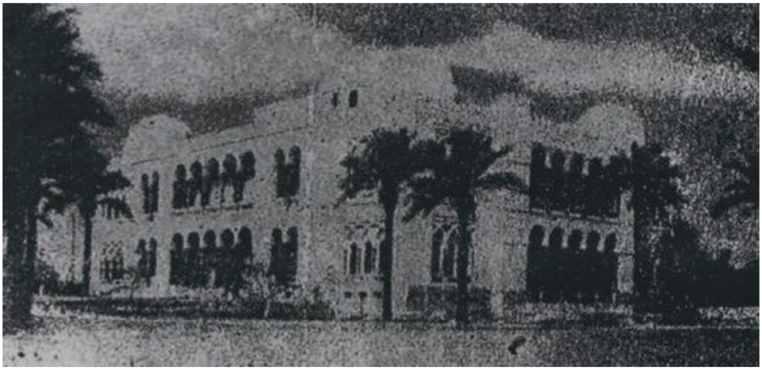

من مناظر طرابلس: سراي فخامة الحاكم العام.

ولما كثر عدد المتخرجين فيها، الْتحق بعضهم بالمدارس الثانوية الإيطالية (الليسيوم) ومدتها ثماني سنوات، ومدرسة المعلمين الابتدائية ومدتها ثماني سنوات كذلك، والمعهد الفني التطبيقي لتخريج المسَّاحين والحاسبين ومدته سبع سنوات، وهذه المدارس مفتوحة للجميع من العرب والطليان واليهود والنزلاء الأجانب، والحائزون لشهادتها النهائية يمكنهم الذهاب إلى إيطاليا للدراسة العليا والتخصص الفني.

وهناك مدارس ابتدائية مختلطة، يتعلم فيها أبناء العرب إلى جانب الإيطاليين، ويتلقى العرب دروسًا خاصة في اللغة العربية وأصول الدين على يدي أساتذة مسلمين، ويشتركون في بقية الدروس مع الإيطاليين.

تعليم بنات العرب والأجانب

وأُنشِئَت مدارس خاصة لبنات المسلمين، مدة التعليم فيها خمس سنوات، ويدخل في برامجها تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي بمعرفة معلِّمَات مسلمات، وتدبير المنزل وشغل الإبرة والنسيج واللغة الإيطالية بواسطة معلمات إيطاليات.

وللبنات الإيطاليات وبنات الجاليات الأجنبية مدارس خاصة لها برامج خاصة، ولمن يُتْمِمْنَ الدراسة في هذه المدارس حتى الدخول إلى المدارس الثانوية للصبيان، فيدرسن إما مختلطات بهم أو منفردات بحسب تَعدادهن وترتيب الفصول وإدارتها.

مدارس أخرى أجنبية وأهلية

وللرهبان والراهبات مدارس ابتدائية، تسير وفق برامج الحكومة، والتعليم فيها بأجر، ويدخل إليها قليلون من أبناء المسلمين وبناتهم.

وكانت في عهد الترك مدرسة إسلامية للفنون والصنائع الأهلية، وكانت لها إدارة خاصة ووقفية خاصة ومجلس إدارة، فلما جاء الإيطاليون أدخلوا إليها بعض تعديلات في الإدارة والتعليم، وهي حتى الآن خاصة بأبناء المسلمين، ويلقنون فيها اللغة العربية وأصول الدين واللغة الإيطالية وإحدى الصناعات الآتية، وهي: النجارة، والحدادة، والخزف، وصياغة الفضة، وأشغال النُّحَاس، ولها ملحق زراعي في ضاحية سوق الجمعة (سيدي مصري) وتعلم فيها زراعة البساتين والدخول إليها بدون الشهادة الابتدائية، والتعليم فيها مجاني.

المدرسة الإسلامية العليا

ومنذ احتل الإيطاليون لوبيا، وهم يفكرون في إنشاء معهد عالٍ للثقافة الإسلامية، وقد تم لهم ما أرادوا، وصدر بذلك مرسوم ملكي، بتوقيع جلالة الملك فيكتور عمانويل بتاريخ ٣ مايو سنة ١٩٣٥ جاء فيه: «رأينا من المناسب تأسيس مدرسة إسلامية عليا

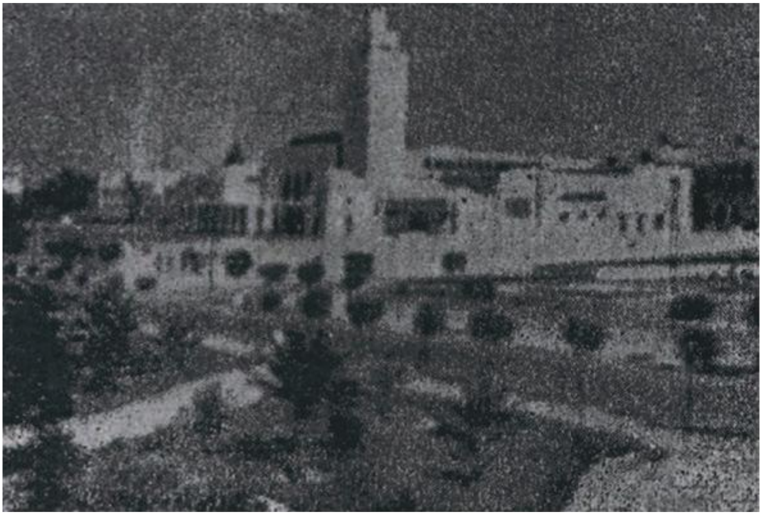

من مناظر طرابلس: كازينو «ودان» الكبير.

بطرابلس ليتسنَّى لشبان ليبيا المسلمين أن يتمموا فيها دروسهم في العلوم الفقهية والدينية الإسلامية.»

وفتحت للطالبين في ١١ يناير سنة ١٩٣٦.

ومدة الدراسة بها عشر سنوات، والتعليم فيها مجاني.

ويقبل فيها الحائزون شهادة الدراسة الابتدائية أو من يؤدون امتحانًا يوازي هذه الشهادة، ويقبل فيها كذلك طلبة الجوامع إذا أدُّوا هذا الامتحان.

وتنقسم الدراسة إلى ثلاث مراحل: إعدادية، ومدتها ثلاث سنوات، ووسطى، وومدتها أربع سنوات، وعليا، ومدتها ثلاث سنوات.

ويدرس في السنوات الإعدادية الدين والعربية وعلم المنطق والأخلاق واللغة الإيطالية والتاريخ والجغرافية والحساب ومسك الدفاتر ومبادئ العلوم وحفظ الصحة.

وتنقسم الدروس الوسطى في سنتيها الثانيتين إلى قسمين: أحدهما لإعداد مدرسين للمدارس الابتدائية الإسلامية، وثانيهما لإعداد الموظفين الوطنيين.

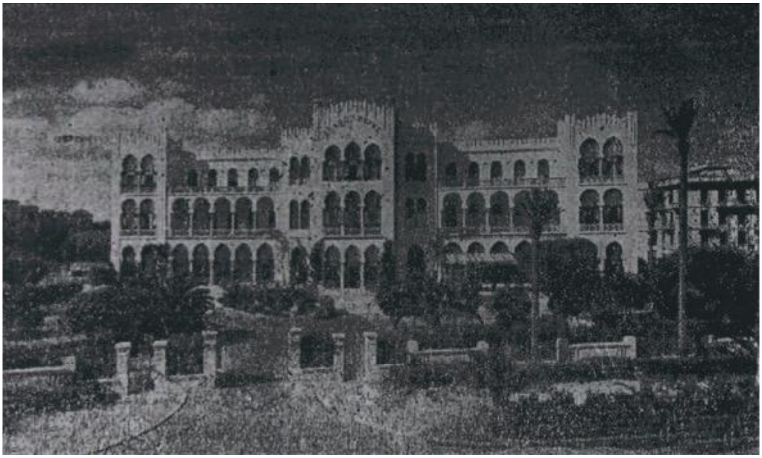

من مناظر طرابلس: الفندق الكبير في طرابلس.

وتدرس في القسم العالي العلوم الدينية وأصول الفقه، وتمارين على المرافعات القضائية والتفسير والحديث ومصطلح الحديث، والبلاغة وتاريخ الأدب والمنطق، وآداب البحث.

ويمنح لقب «عالم» لمن يتمم الدراسة العليا ويحرز الشهادة النهائية.

وللمدرسة الآن دار مؤقتة، ويعدون لها عمارة خاصة تتسع للأقسام الثلاثة، ويخصص فيها جناح للقسم الداخلي.

الفصل الحادي والثلاثون

العزبة المتمدنة وبيوت العمال

قال لي الكافاليري برناردي: هل تريد أن تزور القرى والعِزَب والكفور ومدن الضواحي؟

قلت: وهل تبعُد عن مدينة طرابلس كثيرًا؟

قال: هناك بلاد ومزارع قريبة وأخرى تبعُد ثلاث ساعات فأكثر.

قلت: فلنقتصر على القريبة، ونترك غيرها للسنة القادمة إن أحيانَا الله.

فأخذ يعدد لي أسماء المنشآت الزراعية القريبة، والضواحي وما فيها، فاتفقت على أن نزور تاجورة وسيدي مصري والعزبة المتمدنة وبيوت العمال وصغار المستخدمين.

فأرسل سيارته إلى فندق مهاري، وركبتها إلى الكاستلو، وخرج معي فيها إلى الخلاء.

الطرق المعبَّدة والمزارع الناضرة

فلما اجتزنا ضواحي المدينة تجلَّت لنا الطبيعة بمناظرها الساحرة والطرق المعبَّدة الواسعة التي تتعهَّدها الأيدي كل يوم بالتنظيف والتصليح.

أما المزارع، فآيات ناطقة بقوة الاستعمار الإيطالي وقدرة خلفاء الرومان الأقدمين على تحويل الأرض المُقفِرة جنَّات زاهرة.

ووقفنا غير مرة في الطريق، ونزلنا هنا وهناك إلى بساتين ومزارع شاهدت فها العمال الوطنيين والإيطاليين يعملون في الأرض لإخراج ثمرها بمعاونة الآلات، ويُرَبُّونَ الماشية والدواجن ويخزنون الحاصلات في الأنبار والأهراء.

ونزلنا كذلك إلى بعض المدن الصغيرة، فرأيت في كل واحدة منها مركز البوليس والمدرسة الابتدائية والمستوصف، وتناولنا القهوة في نادٍ صغير نظيف.

وأشبعني السنيور برناردي بمعلوماته الفيَّاضة عمَّا بذله المستعمرون من جهود في التعمير. وذكر لي أن من المزارع ما يخص فردًا، ومنها ما تملكه شركات وجماعات صغيرة من المتعاونين، وأن بعضهم رمى بعشرات الألوف من الجنيهات في هذه الصحاري الرملية القاحلة، وقضى السنوات حتى حوَّلها إلى مزارع وبساتين للفاكهة ومراعٍ للدواب.

في سيدي مصري وتاجورة

ومن الأرباض التي نزلنا إليها «سيدي مصري»، وهي قرية كبيرة، تشتمل على مسجد يُزار، وسوق واسعة تُباع فيها الأطعمة من لحم وخبز وبقل. وإلى جانبها عمارات جديدة استدعتها حالة القرية وتزايُد العمران فيها.

ووقفت بنا السيارة أيضًا في تاجورة بلد العلماء وأهل الفضل والجامع الكبير الذي أنشأه مراد آغا سنة ٩٨٠ للهجرة، وهو من الجوامع المشهورة في لوبيا بدقة صناعته وهندسته. وفيه مائة قبة صغيرة مرفوعة على ٤٨ عمودًا، وفي جدرانه ٢٥ نافذة.

وقد استقبلنا إمامه مرحِّبًا، وخاطَب السنيور برناردي بالإيطالية، وطفق يشرح لي تاريخ الجامع وهندسته وما أدخل فيه من إصلاح وتعديل.

في العزبة المتمدنة

ومن أبدع ما رأيناه في هذه الرحلة العزبة المتمدِّنة، وهي خليقة بزيارة صاحب السعادة فؤاد أباظة باشا، مدير الجمعية الزراعية الملكية، وولاة الأمر في وزارة الصحة المصرية المهتمين بإصلاح حال العزبة وترقية شئون الفلاح؛ ليقتبسوا من هذه المنشأة الإيطالية ما يستعينون به على إتمام غرضهم المنشود.

قال لي الكافاليري برناري: لقد ضاقت مدينة طرابلس بسكَّانها الوطنيين، وأصبح يتعذَّر على الفقراء منهم وجود مساكن بأجور موافقة. فرأت الحكومة أن تنشئ لهم هذه العزبة وتؤجِّر لهم مساكنها بأجور اسمية هي أربع ليرات (أربعة قروش مصرية) في الشهر. وليس القصد من ذلك رعاية صحتهم فقط، بل تمدينهم وتعليمهم طرق النظافة وتسديد خطواتهم إلى الحياة المدنية الراقية.

ولما وصلنا إلى العزبة استقبلنا ناظرها السيد محمد ابن الحاج قزقو، وهو من خريجي المدارس الابتدائية، يلبَس الملابس الإفرنكية، وعلى رأسه طربوش مغربي، وأدخلَنا إلى مكتبه في غرفة صغيرة مجهَّزة بمنضدة وتليفون وخزانة للأوراق والمستندات والدفاتر والفيش.

البيوت في العزبة المتمدنة.

وأخذ يشرح لنا حالة العزبة، فقال: إن فيها الآن ٥٠٠ مسكن، منها ١٥٠ مسكنًا كبيرًا، وعدد السكان ٢٣٧٢ نفسًا.

ولكل عائلة فيشة خاصة يقيَّد فيها اسم رئيس العائلة ومن معه ومن يزيد عليهم أو ينقص بالولادة والموت.

قال: وعندنا في العزبة رجل له ثلاث زوجات، وشخصان كل منهم متزوج من امرأتين، ولكل واحدة من أولئك الزوجات دار خاصة.

وقد يُعطَى الساكن أكثر من دار إذا كان كثير الأولاد.

ويسكن ناظر العزبة مع عائلته إلى جانب المكتب والمسجد والمدرسة.

والمساكن تشبه على نوعٍ ما التوكلات السودانية، مستديرة الجدران تعلوها سقوف من القرميد الأحمر على هيئةٍ مخروط، وفي مدخل البيت موقد للطبخ، ثم غرفة النوم والجلوس.

قلت للناظر: أرجوك أن تريني أبدع مسكن عندكم.

فقادني إلى دار متوسطة، وقال إنها مسكن شاب أعزب يشتغل بتجليد الكتب في مدينة طرابلس ويعيش هنا مع السيدة والدته، والغرفة آية في النظافة تحتوي على سرير من الحديد عليه مُلاءة بيضاء، وفُرِشَت الأرض بسجادة، وعُلِّقَتْ على الحائط ساعة

صغيرة ومرآة وصورة لصاحب الدار وصورتان لممثلي السينما المعروفين جريتا جاربو وروبرت تايلور.

ويتوسط المساكن حنفيات عامَّة للغسيل والشرب ودورات مياه خاصة للرجال وأخرى للنساء، ومثلها حمامات لكلٍّ من الجنسين مجهَّزة بدوشات للمياه الساخنة والباردة، وحظائر خاصة لتربية الدواجن من طيور وخراف وغيرها.

وفي العزبة نقطة للبوليس، ومستوصف مجهَّز بالأدوات الصحية، ودار لرعاية الطفل والولادة تديره طبيبة إيطالية ومعها مساعِدات.

وقد أدهشني ما رأيته في هذا المستوصَف من ترتيب ونظافة، سواء في الكشف على المصابين وتقديم الأدوية وقاعات العمليات والغرف المعَدَّة لنوم السيدات بعد الوضع، حيث يلبثن الزمن الكافي للملاحظة ويقدَّم إليهن الدواء والطعام مجانًا.

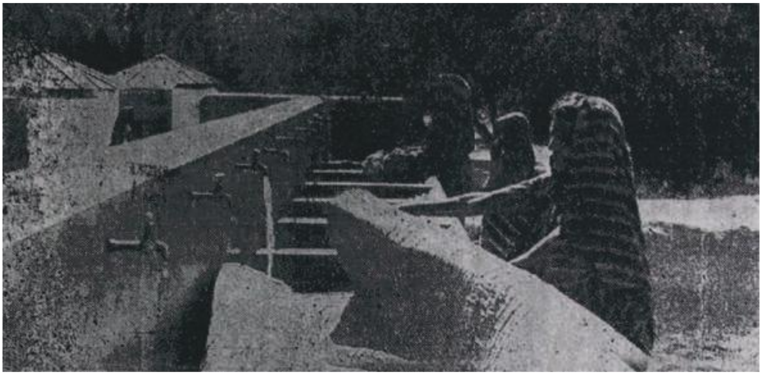

حنفيات الغسيل في العزبة.

وخرجنا من المجموعة الطبية إلى سوق العزبة، وفيها ١٤ دكانًا لجزار وبقال وبائع بترول وفحم وقهوة وحلاق (ويسمونه حسان)، وطاحون كهربائي.

وجلسنا في القهوة مع ناظر العزبة وشربنا الشاي على أنغام الفنوغراف، فسمعنا صوت أم كلثوم تنشد: «يا شباب النيل، يا عماد الجيل، هذه مصر تناديكم.» والسيدة فتحية أحمد تغني: «كم دعوت دموعي.»

في بيوت العمال

ثم ودَّعنا السيد الناظر، وركبت والكفاليري برناردي إلى المدينة، وفي طريقنا زرنا بيوت العمال، وهي منشأة حديثة افتتحها حضرة صاحب الجلالة إمبراطور إيطاليا في زيارته الأخيرة للوبيا.

والنية معقودة على أن يكون في هذه المدينة ٣٨٠ مسكنًا، تم منها إنشاء ٩٦ مسكنًا.

وهذه المساكن فيلات ذات دور واحد، وتؤلَّف كل فِيلَّة من ثلاث غرف وقاعة للأكل ومطبخ ودورة مياه وحديقة مساحتها ٢٥٠ مترًا فيها غرفة للغسيل، والأجرة الشهرية للفِيلَّة ١٥٠ ليرة (١٤٠ قرشًا)، وهي غير أجرة الإنارة وثمن المياه، وتتراوح من ٢٠ إلى ٣٠ ليرة في الشهر.

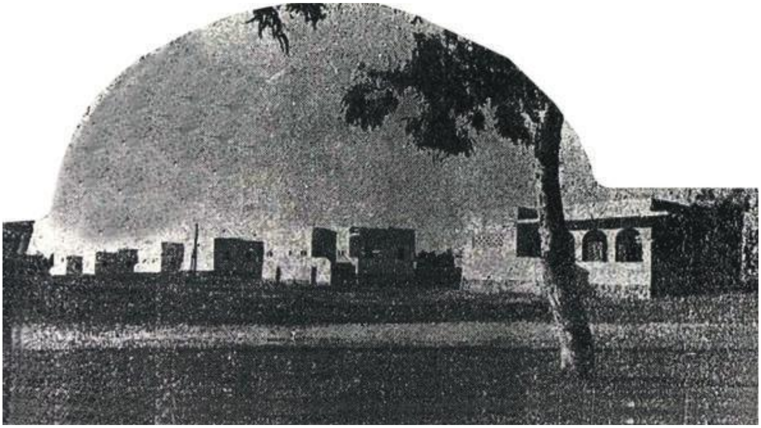

مجموعة من بيوت العمال.

لا يزال التعمير والبناء يجريان بنشاط لإتمام المساكن الباقية وتمهيد الشوارع والميادين التي تتخلَّلها وزرع الأشجار المظللة فيها.

وقد سمح لنا اثنان من سكان هذه الفيلات بزيارتهما، فرأينا أولهما متأنقًا في فرشه ورياشه، والثاني لم يتم التأثيث، وليس عنده إلا الأَسِرَّة التي ينام عليها مع أولاده.

وعلمت أن بعض الفيلات يسكنُها ثلاثة أشخاص، والبعض يسكنها عشرة.

ويرجع الفضل في إنشاء المدينة إلى الحكومة والماريشال بالبو، فقد مهدت الأرض وشقت الطرق ومدت إليها أنابيب المياه وأسلاك الكهرباء وسلمتها إلى إحدى الشركات المالية فبنت فيها البيوت على أن تسكنها بهذا الأجر الزهيد.

وتمت هذه الدورة ظهرًا، فعُدتُ إلى الفندق شاكرًا للسنيور برناردي مُثْنِيًا على فخامة الحاكم العام ورجال حكومته على ما أسدَوْه إلى طرابلس وأهلها من خدمات جليلة.

الفصل الثاني والثلاثون

يومان في بنغازي

الأربعاء ٧ سبتمبر الساعة الثانية بعد الظهر.

وقفت مع آخرين أمام مكتب شركة السياحة الإيطالية، بجوار الكاستلو ننتظر أوتوبيس شركة الليتوريا.

وبعد ربع ساعة وصل الأتوبيس اللوكس، ذو المقاعد المريحة والسقف المُعَدِّ لحمل الحقائب الثقيلة والخفيفة.

فركبنا، وسارت بنا العربة مجتازة شوارع طرابلس الجديدة وضواحيَها وأرباضها حتى وصلنا إلى المطار العامر بأكثر من طائرة بين صغيرة وكبيرة.

الوصول إلى بنغازي

وكشف الموظفون على الباسبورتات وأركبونا الطائرة، فطافت بنا فناء المطار الواسع وأخذت تزمزم وتحلِّق إلى أن ارتفعت فوق البحر، وسارت باطمئنان حتى وصلت بنا إلى مطار بنغازي في منتصف الساعة السادسة مساء.

ووقف بالمطار عدد من الموظفين والعمال والحمَّالين من الإيطاليين والوطنيين.

والوطنيون يلبَسون الملابس المغربية الأنيقة من سلطة وسروال وطربوش طويل الزر.

وكان لطربوشي المحترم عمله وأثره، فأحاط بي الإخوان الطرابلسيون مرحِّبين بلهجة تكاد تكون مصرية: أهلًا وسهلًا! الحمد لله على السلامة يا سيدنا المبارك.

ومن المطار إلى المدينة في أوتوبيس الشركة، فأنزلني أمام فندق إيطاليا الكبير.

مع زميل طرابلسي

وبعد أن قيَّدتُ اسمي في الفندق ركبت عربة قاصدًا إدارة جريدة «بريد برقة» ومجلة «ليبيا المصورة»، وفي الطريق سألني الحوذي الكهل عن مصر وأهلها وذكر لي أن له ولدًا يتلقى العلم في الأزهر الشريف.

ولم أجد الزميل الأستاذ عمر فخري المحيشي صاحب الجريدة والمجلة في مطبعته، فتركت له بطاقتي وكتبت له عليها أنني في انتظاره بالفندق.

ثم عدت إلى الفندق وجلست أستمع لجوقة موسيقية لا بأس بها.

ولم أكَد أتناول القهوة، حتى حضر الأستاذ المحيشي وأقبل عليَّ مسلِّمًا مرحِّبًا سائلًا عن أُسرة الأهرام عامة والزميل الأستاذ عبد الرحمن نصر خاصة، ثم انتقلنا إلى قهوة في الميدان حيث عرَّفني إلى فريق من إخوانه التجار والأدباء.

الجامع العتيق في ميدان البلدية.

وركبنا عربة إلى الحي الوطني، وشربنا الشاي المغربي المنعنع في قهوة وطنية وسمعنا الراديو المصري وكان صوته ضعيفًا مخشخشًا.

واعتذر الأستاذ المحيشي عن السهر معي لموعد ارتبط به قبل مقابلتي.

عند قنصل مصر

وبعد تناول العشاء، جاءني مدير الفندق وأبلغني أن سعادة قنصل مصر يرجوني مقابلته في فندق برانيشي.

قلت: وأين هذا الفندق؟ فوصف لي المدير طريقه.

ولما وصلت سلَّمت البطاقة إلى الحاجب، فأتى إليَّ الأستاذ القنصل أحمد بهجت بك مرحِّبًا وهو يقول: أهلًا بصحافينا العجوز، لقد رآك فيس قنصل بريطانيا، وأبلغني أن مصريًّا وصل إلى فندق إيطاليا، ولو عرفت أن هذا المصري هو الصحافي العجوز؛ لحضرت لمقابلتك. فشكرته وقضيت معه ساعة.

ورجعت إلى فندقي، وأمضيت فيه السهرة.

وفي الساعة السابعة صباحًا أيقظني أحد الخَدَم طارقًا الباب وهو يقول بلهجة مصرية: اصح يا أستاذ، الساعة سبعة.

وكان الإفطار في قهوة الفندق، والتجول في ميدانه الفسيح، وفيه منتزه بديع تحيط به البارات والأندية والمتاجر ومكاتب السياحة.

وراقني منظر الأهالي، وجمال ملابسهم سواء كانت إفرنكية أو بلدية، والكل منتعلون سواء بالأحذية أو الصنادل.

ولاحظت صبيًّا وطنيًّا من مسَّاحي الأحذية يقرأ صحيفة «كوريره دي بنغازي»، وهي الصحيفة اليومية الإيطالية في المدينة.

وحدَّثت صبيًّا وطنيًّا يبيع الصحف الإيطالية، فقال لي إنه أتم دروسه الابتدائية وتعلم فيها العربي والطلياني، ويقرأ الصحف الإيطالية وجريدة «بريد برقة».

في دار القنصلية

وقصدت ضحًى فندقَ برانيشي (وصحته عند الأرحبيين برنيقة)، وسألت عن البيك القنصل فوجدته في مكتبه.

وبعد الترحيب، قال لي: هذا مكتب مؤقت للقنصلية؛ لأنني لم أجد دارًا لائقة لها للسكن، وأنت أول مصري يزورني في القنصلية، فاتحة سعيدة إن شاء الله.

وقنصلية بنغازي أحدث قنصلياتنا المصرية.

والأستاذ بهجت بك خريج كلية الحقوق، والْتحق بعد إتمام دراسته بالقنصليات وتنقَّل بين ليفربول والحبشة وأثينا وروما وبنغازي.

ويصحبه اثنان في الخدمة السايرة، وهما: أمين أحمد صالح أفندي، من أبناء العائلات الكريمة في شبين القناطر، وحائز للبكالوريا المصرية، وعوض مصطفى أفندي، من أهالي أصوان، وحائز للشهادة الابتدائية.

وكلاهما مهذَّب مهندَم أنيق الملابس، قالا لي إنهما يسكنان مع عائلة إيطالية، وشكيا من غلاء الأكل والملابس وبقية الحاجيات بالنسبة لما يتناولانه من راتب ضئيل.

وركبت مع البيك القنصل تكسًا صحبنا فيه إيطالي، قال لي بهجت بك: هذا الرجل سمسار، ونحن ذاهبون للفرجة على دار، وقد تعبت واللهِ يا أخي في اللف والبرم وغرامة يومية تتراوح بين ٤٠ و٥٠ ليرة أجرًا للتكسيات.

جولة في المدينة

وفي هذه اللفة تمكنت من مشاهدة القسمين الجديد والقديم من المدينة والكورنيش العظيم حيث بُنِيَ فندق برانيشي لينزله ركاب الطائرات المسافرة إلى مصر والسودان في طريقهما إلى أثيوبيا، وهو فندق عصري تأنَّقوا في بنائه وهندسته وكساء جدران قاعاته بالمرمر الثمين، وجهزوه بكل أدوات الرفاه سواء في غرف الطعام أو قاعات الجلوس والاحتفالات وغرف النوم.

الكورنيش وباخرة كاتدرائية بنغازي.

وفي الطريق رأينا قطارًا صغيرًا على مثال قطارات الدلتا، قال لي القنصل المحترم إن هذا القطار يوصل إلى الليدو المعروف باسم حمامات جوليانا، وهو قطار متواضع مطيع يقف للركاب في نزولهم منه وطلوعهم إليه.

وزرنا سعادة الدكتور إريكولي فيلاني حاكم المدينة، فرحَّب وأكثر من السؤال عن مصر وحالها، وقال لي: إنه يأسف لتَركي المدينة على عجل، وينتظر أن أزورها مرة ثانية ليريني دخائلها وما فيها من منشآت عمرانية وبحرية وحربية.

وتناولت الغداء مع القنصل المحترم في فندق برانيشي وتركته على أن نتقابل إما ليلًا في الفندق، أو في الصباح بالمطار.

ومن الفندق قصدت إلى مكتب الليتوريا، فحجزت مقعدًا في الطائرة، وأبلغت الخبر إلى سعادة القنصل، واتفقت على أن أبيت في فندق برانيشي لنذهب معًا إلى المطار.

وتجولت في المنطقة المحيطة بفندق إيطاليا، فإذا بها صورة مصغَّرة لمدينة طرابلس، سواء في ساحاتها وطرقها وكورنيشها ومبانيها، وهكذا قُلْ عن المدينة القديمة وأسواقها المسقوفة وصُنَّاعِها الوطنيين الذين يشتغلون في صناعتهم بأيديهم بين سمكري ونحَّاس ونعَّال.

ويمتاز القسم الجديد بالأشجار الوارفة التي تظلل ساحاته، ومع صغر المدينة، فقد رأيت فيها ثلاث قهوات في كل منها جوقة موسيقى وغناء ورقص.

والمواصلات في المدينة صعبة؛ فإن عامة الشعب يركبون دراجاتهم، وكبار الموظفين ورجال الجيش لهم سياراتهم الخاصة.

وقد تمضي نصف ساعة قبل أن تمر بك عربة أجرة أو تاكسي لتنقلك إلى المكان الذي تريده.

والقسمان الجديد والقديم مرصوفان بالحجر الأصم ومُناران بالكهرباء الساطعة الأنوار.

وآثار إيطاليا ظاهرة في تعمير بنغازي ظهورها في بقية مدن ليبيا الصغيرة والكبيرة.

الأستاذ الزميل عمر المحيشي

وفي المساء قابلني الأستاذ عمر فخري المحيشي في فندق إيطاليا. والأستاذ من كبار الأدباء والصحافيين المعدودين في لوبيا، ويعد مصريًّا بحكم تربيته في مدارس الإسكندرية وتردده على مصر وعلاقته بأدبائنا وصحافيينا ومطالعة ما يكتبه كبار كتابنا.

صناع وطنيون في بنغازي.

وجريدته «بريد برقة» أنشأها المرحوم السيد محمد طاهر المحيشي سنة ١٩٢٥، وكانت تصدر في أول عهدها في أربع صفحات ذات خمسة أعمدة، وكان السيد عمر يعاون أخاه طاهرًا في عمله.

وتولى السيد عمر أمر الجريدة، فوسَّع نطاق مطبعتها، ويصدرها الآن أسبوعية في سِتٍّ صفحات ذات خمسة أعمدة، يشتمل كل عدد منها على مقالات سياسية محرَّرة ومترجمة وصحيفة أدبية وأخبار محلية ووطنية، وتزين أحيانًا بصور.

ثم أصدر مجلة «ليبيا المصورة» شهرية في حجم بين الصباح والمصور، وهي خاصة بالمباحث الفنية والأدبية لِلوبيا وأهلها، وطبعها متقن على ورق صقيل وصورها جلية.

ويعاونه في تحرير الجريدة والمجلة نخبة من أهل الفضل والمراسلين في أنحاء لوبيا.

في ضيافة الأستاذ المحيشي

ودار الأستاذ المحيشي في الحي الوطني على مقربة من البحر، دار وسيعة، أُعِدَّ الدور الأرضي منها لإدارة الجريدة ومطابعها والدور الأول لسكنه ومكتبه، والمكتب أنيق الفراش يحتوي على خزائن عدة صُفَّتْ فيها مجلدات الكتب والجرائد والمجلات ومعظمها من مطبوعات مصر. وفيها عدد من المطبوعات الإيطالية.

وتناولنا العَشاء معًا، وفيه الكسكسي العامر بأنواع اللحم والطير، وقد أقبلتُ عليه بشغف، فلم يبق هناك موضع لغيره من أصناف مختلفة من الطعام المغربي الفاخر.

وبعد الطعام، كانت سهرة أدبية حضرها غير واحد من أدباء لوبيا، أذكر منهم الأستاذ وهبي البوري، أديب مثقَّف تلقى علومه في المدارس الإيطالية بالإسكندرية، ومُطَّلِع على الحركة الأدبية، يشتغل بالحكومة، ويساعد في تحرير «ليبيا المصورة»، ويكتب فيها القصص، ويترجم كثيرًا عن اللغة الإيطالية.

والدكتور علي نور الدين العنيزي، مدير الأوقاف الإسلامية، درس في إيطاليا الاقتصاد والاجتماع، وأحرز دكتوراه من الجامعة.

وجرى الكلام طويلًا في الأدب والصحافة والحركة الصهيونية.

واتفق الحاضرون على الشكوى من «محطة الراديو» المصرية، وقالوا: إننا نسمع بوضوح راديو روما وبروكسل وتونس والجزائر وستراسبورج، أما راديو مصر فلا نسمعه إلا في «فصل الصيف» ضعيفًا، ثم نجده ممتزجًا بمحطات أخرى، والراديو هو الصلة الوحيدة بيننا وبينكم، فحبذا لو أصلحتموه لخدمتنا في عزلتنا.

وبينما نحن في أحاديثنا ومطارحتنا، مرَّت بالشارع «زفة عريس» يتقدمها حمَلة الشموع والأعلام، وجماعة يرتلون القصائد الدينية البليغة على قرع الدفوف.

وكلما طلبت الإذن بالانصراف أبى الإخوان إلا التمسُّك بي حتى كادوا يرغمونني على قضاء الليل معهم، والانصراف فجرًا إلى المطار، ولكنني استأذنتهم حوالي الساعة الأولى صباحًا، وودَّعوني كلهم على الباب وأركبوني عربة أقلتني إلى فندق برانيشي.

الفصل الثالث والثلاثون

من بنغازي إلى ألماظة

سألني الجارسون في فندق برانيشي الكبير: متى تستيقظ يا سيدي؟ قلت: في موعد الطيارة.

ولم أنم إلا لمامًا، نومًا متقطعًا لم يتجاوز أربع ساعات.

وفي الساعة الخامسة دق الباب معلنًا الموعد.

وبعد عشر دقائق كنت في الهول منتظرًا سعادة القنصل.

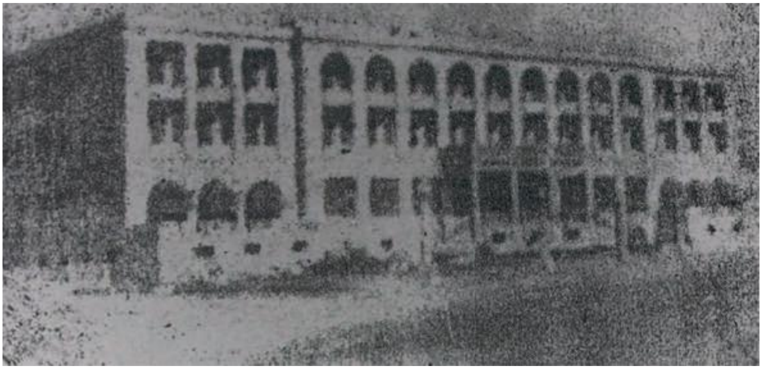

فندق برانيشي الكبير.

وطال انتظاري نحو نصف الساعة، وإذا بالقنصل ينزل متمهلًا على السلم المرمري وعلى رأسه الطربوش، ويحمل الحاجبان حقيبتين متوسطتين له وسيفه، فأدركت في

الحال أنه ينقل معه البذلة الرسمية ليستقبل بها حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم في رحلته إلى الحدود الغربية.

وفي الساعة السادسة صباحًا وصل إلى الفندق أتوكار شركة الليتوريا الفخم، فركبناه مع بقية المنتظرين من السياح.

إلى مطار بنغازي

وسار بنا إلى فندق إيطاليا الكبير فأركب سياحًا آخرين.

ثم اجتاز شوارع المدينة حتى الضواحي، فالخلاء إلى المطار، وهو واسع عريض الضواحي، ربضت في فنائه نحو عشر طائرات مختلفة الألوان، وتسلم الخدم الوطنيون الحقائب، وأدخلونا إلى المكتب وفيه دائرة الباسبورت والجمرك.

وبعد الإجراءات الرسمية انتقلنا إلى البوفيه المجهَّز بالغلايات المعدنية المفضضة وزجاجات الخمر والبسكويت والحلوى، فشربنا الشكولاتة الممزوجة باللبن وأكلنا قطعًا من التوست المدهون بالزبدة.

السفر بالطيارة إلى مصر

وودعنا موظفي المطار من عسكريين ومدنيين وركبنا الطيارة، وألقيت نظرة على الزملاء من الركاب، فإذا أكثرهم من رجال الحرب.

وحدثهم سعادة القنصل فعلم أنهم يقصدون كلهم الحبشة.

وذكر له بعضهم أننا ارتفعنا عن الأرض ألفي متر، ثم ثلاثة آلاف متر.

وأبلغني ذلك، فقلت: فلتفعل الطيارة ما تريد على شرط تنزل بنا سليمة.

وكان العشاء الدسم والسهر الطويل قد أخذا مني، فاستسلمت للنوم.

وفتحت عيني، فإذا بسعادة القنصل يقول لي: صح النوم.

مطالعة في تاريخ طرابلس

وكنت قبل أن أبرح مدينة بنغازي قد ابتعت كتاب «تاريخ طرابلس الغرب»، المسمى «التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان به من الأخبار»؛ لأقطع به شطرًا من الوقت في الرحلة الجوية.

الأستاذ بهجت بك قنصل مصر في بنغازي.

والكتاب من مطبوعات المطبعة السلفية بالقاهرة لصاحبها الصديق الأستاذ محب الدين الخطيب (صاحب مجلة الفتح).

وقد جمع فيه مؤلفه ما يتعلق بطرابلس من أخبار، وما تعاقب عليها من دول إسلامية وغيرها، وما وقع فيها من ثورات وحروب منذ الفتح الإسلامي إلى أواسط حكم أحمد باشا القره مانلي.

وعثر الأستاذ الشيخ الطاهر أحمد الزاوي الطرابلسي على نسخة من هذا الكتاب في مكتبة المرحوم أحمد تيمور باشا منقولة بالفتوغرافية عن نسخة مخطوطة محفوظة في خزانة باريس الأهلية، ومكتوبة بخط مغربي جميل ولكنها كثيرة التحريف.

فبذل الشيخ الزاوي جهده في تنقيحها وتصحيحها والتعليق عليها وطبعها بعد أن قسمها فصولًا وأبوابًا، وعنون الحوادث ووضع الفواصل بين الجمل، وقسَّم جملًا وفقرات.

وصدر الكتاب بترجمة حياة المؤلف، وعلق عليها بمقدمة وصف فيها طرابلس جغرافيًّا، وأجمل تاريخها حتى الفتح الإيطالي لها.

وقرأت بعض فصول الكتاب، واستفدت الكثير من تعليقات الناشر وشروحه ملتهيًا عن النظر إلى الجو والصحراء الجرداء الرتيبة.

حكاية منخفض القطارة

ثم كانت إغفاءة، فعَوْدٌ إلى القراءة، حتى دخلنا إلى الحدود المصرية، فنبَّهني سعادة القنصل إلى منخفض القطارة، وأخذ يصفه لي وصف خبير عارف بهذه الأرض وطبيعتها.

والموضوع هندسي بحت، درسه بعض كبار المهندسين المصريين وضعوا فيه التقارير المسهبة، ثم كان نصيبها الحفظ في الأضابير والخزائن المقفلة، والله أعلم متى تُفتح ويُنفَّذ المشروع.

في سماء مصر

ثم دخلنا أرض مصر، فإذا بنا فوق تابلوهات ساحرة من مناظر المزارع في الوجه البحري يتخللها النيل السعيد وروافده من ترع وأقنية والطريق الصحراوي الممهد، ثم الأهرام وأبو الهول فالجيزة والجزيرة بما فيها من سرايات وقصور ومباني الجمعية الزراعية.

الوصول إلى ألماظة

وانتهى بنا الأمر إلى مصر الجديدة، وقد خفض الطيار سرعة السير ونزل بالطيارة من عليائها، فتجلَّت لنا تقاسيم مدينة البارون إمبان، وفندق هليوبوليس بالاس وما يحيط بها ويجاورها من عمارات بديعة.

وبعد أربع ساعات من قيامنا من طرابلس هبطنا إلى مطار ألماظة.

وكان الاستقبال الأخوي والترحيب، ودفع ١٥ قرشًا رسمًا للكورنثينا.

ثم دخلنا إلى مكتب الأستاذ محمود عبد الله مأمور المطارات المصرية، وبعد التعارف والاطِّلاع على الباسبورت، أمر بالاكتفاء بالتأشير على الحقائب دون فتحها.

وأبى أن يتركنا قبل تناول القهوة.

ثم قال: لقد كنت مشتاقًا لرؤية الصحافي العجوز، وإنه ليوم سعيد أن ألقاه في مكتبي، وقد تقدمته براءة إنعام الحكومة الإيطالية عليَّ بنيشان تاج إيطاليا من درجة

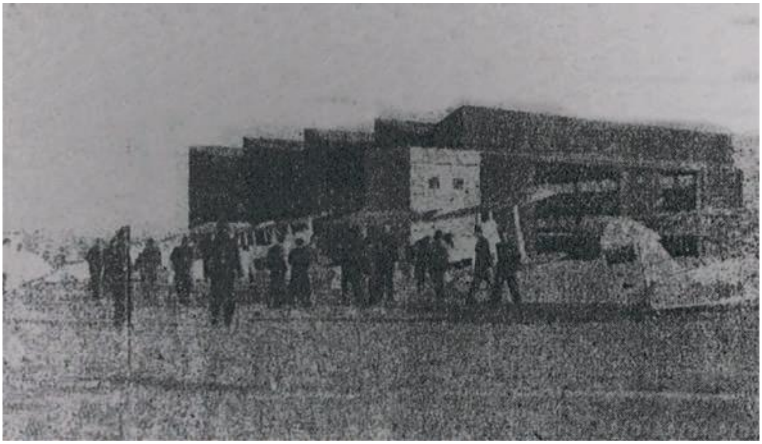

فارس، تقديرًا للخدمات التي أقوم بها لركاب الطائرات، وأخصهم المسافرون على خط بنغازي أديس أبابا.

فهنأته بهذا الإنعام، ورجوت له المزيد من تقدير الحكومات والارتقاء في مناصب الدولة.

انتهاء الرحلة

ثم وصلت سيارة فخمة أنيقة من سيارات شركة الليتوريا، فركبتها والقنصل المحترم، فاجتازت بنا هليوبوليس ومنها إلى شارع الملكة نازلي فحدائق القبة، وفيها أنزلت حضرة القنصل.

ومن حدائق القبة إلى شارع راغب باشا حيث يسكن الصحافي العجوز.

وبذلك كانت نهاية الرحلة في الساعة الحادية بعد ظهر يوم الجمعة التاسع من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٨.

والحمد لله على كل حال.

هنداوي